٢



محمد متولي الشعراوي

أخبار اليوم

ادارة الكتب والمكتبات

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم بدأ بالفاتحة وهى أم الكتاب . . **والفاتحة بدأت « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين »** . . وأسباب الحمد كثيرة لأننا نحمد الشيء لذاته . . لأن فيه خصالا تستحق الحمد . . ونحمد الشيء لصفاته . . فعندما نرى شيئا جميلا كلؤلؤة بديعة . . نمدح صفاءها . . أو زهرة جميلة . . نمدح جمالها . . والحمد يكون أيضا على النعم أو على وجه الدقة على ما نالك من النعم . . فإذا أحسن إليك إنسان فأنت تحمده على إحسانه . . وإذا أعطاك شيئا فأنت تحمده على عطائه . . الحمد أيضا يأتى لما أطمع فى الحصول عليه . . فأنت تمدح إنسانا لأنك تعرف أنك ستنال منه خيرا . . ومن هنا فإنك تقدم المدح لتحصل على الخير . .

والحمد يأتى من الخوف من العقاب ومن وجودى تحت سيطرته . . فإذا ارتكبت خطأ ، وكان هناك من يستطيع أن يعاقبنى على الفور ويبطش بى . . ولكنه قدم الرحمة على البطش والعقاب . . فأنا أحمده لأنه قدم رحمته على عدله وعقابه . .

هذه هى بعض العناصر التى يمكن أن تكون أساسا للحمد . . فإذا أتينا إلى الله سبحانه وتعالى . . وجدنا كل هذه العناصر وأكثر منها تستوجب الحمد لله . . فنعم الله سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى . . ويعطى . . ويفتح الأبواب المغلقة . . وييسر السبل فى الدنيا . . ويعطى الصحة والمال . . ويوفق فى العمل . . ويصيب بخيره من يشاء . . وهو فى كل هذا معط لا يأخذ شيئا . . أى أنه سبحانه وتعالى غير محتاج لنا فى شيء . . نحن جميعا لا نزيد ملك الله شيئا ولا ننقصه شيئا . . والله خزائنه لا تفرغ أبدا . . ولا يستطيع أحد أن يعد نعم الله أو يحصيها . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز **« وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »** . . ومع تقدم احصاءات الدنيا كلها فإن أحدا لا يستطيع ولا يحاول أن يحصى نعم الله سبحانه وتعالى . . وهى نعم . . ظاهرة ونعم باطنة .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى الذى لا تعد نعمه ولا تحصى . . والذى لو أردنا أن نحمده ما وفيناه حقه . . ولو بقينا طول عمرنا نلهج بالشكر والثناء . الله سبحانه وتعالى رحمة منه بالعالمين قد جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين

« **الحمد لله** » . . والعجيب فى هذا . . أنك تأتى لتشكر بشرا على نعمة واحدة أسداها إليك وتظل ساعات وساعات تلهج بالشكر والثناء . . وربما لا يرضيه كل هذا . . ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته وعظمته إنما يكتفى بكلمتين اثنتين « **الحمد لله** » . . وذلك ليعلمنا مدى القدرة . . ومدى الشكر . . والله الذى لا تعد نعمه ولا تحصى فى الدنيا والآخرة . . هو الذى يعدنا حسن الجزاء فى الآخرة والحياة الطيبة فى الدنيا والذى يقدم لنا فوق ما يقدم البشر فى العالم . . وفوق قدرة هذا البشر جميعا إنما يكتفى منا بكلمتين اثنتين لشكره هما « **الحمد لله** » .

الله الذى يعطى بلا حساب وينعم على كل المخلوقات . . يكتفى بكلمتى الشكر هاتين . . ولذلك جاءت الحمد لله فاتحة الكتاب . . وجاءت أيضا خاتمة فى قوله تعالى « **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** » . . فكأن الحمد واقع فى الدنيا والآخرة . . واقع والخلق فى حياتهم . . وواقع بعد أن ترجع الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى .

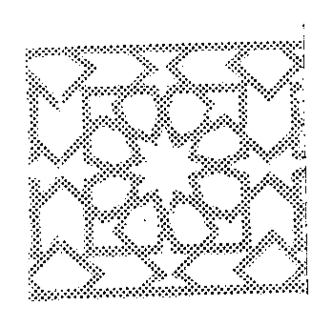
ولقد كان يصعب على العقل البشرى أن يجد الصيغة المناسبة ليحمد هذا الكمال الالهى . . ومهما أوتى البشر من بلاغة وقدرة فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى ما يفى الله حقه . . ولذلك علمنا الله سبحانه وتعالى فى أول الكتاب كيف نحمده . . وسوى بين عبيده جميعا فى صيغة الحمد . . لأن المطلوب من كل عبد من عباد الله أن يحمده على نعمه . . وليس كل عباد الله بقادر على أن يضع صيغة مناسبة لحمد الله سبحانه وتعالى .

فحين يعلمنا الله أن نحمده بقولنا « **الحمد لله** » . . فهو يعطى الفرصة المتساوية المتكافئة لعبيده بحيث يستوى فى ذلك المتعلم والأمى . . إذن فتعليم الله لعبيده صيغة الحمد نعمة أخرى يستحق الله سبحانه وتعالى الحمد عليها . . ولذلك فإن الإنسان إذا أراد أن يحمد الله على نعمه . . فإنه يجب أن يحمده أيضا على تعليمه نعمة الحمد . فيظل العبد دائما حامدا . . ويظل الله سبحانه وتعالى دائما محمودا .

على أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يضع على شفاهنا كلمة الحمد خلق لنا النعم التى تتعلق بالحمد . . وإذا نظرنا إلى ترتيب الأشياء لوجدنا أن نعمة الله على الإنسان تسبق وجود الإنسان . . فقد خلق الله سبحانه وتعالى السموات

والأرض وقدر فيها أقواتها ورزقها . . وعندما وجد الإنسان بكلمة **« كن »** . . كانت النعم موجودة . . بل أن آدم عليه السلام أبا الإنسانية عندما خلقه الله سبحانه وتعالى عاش فى جنة لا يتعب فيها ولا يشقى . . كل شيء متوافر فيها لحياته . . وآدم إنسان بلا ماض . . أى أنه جاء إلى الحياة دون أن يكون له ماض يسبقه . . ولكن نعم الله سبحانه وتعالى كانت تسبقه وتنتظره لتعطيه الحياة الطيبة التى لم يصنعها لنفسه . . ولكن صنعها الله سبحانه وتعالى له .

هذه مقدمة عن معنى **« الحمد لله »** . . وهى مقدمة يجب أن نقولها شكرا لله على كل نعمة أنعمها الله علينا . . وهى مقدمة يجب أن تسبق ما سنتحدث عنه فى فصول هذا الكتاب عن (الله والكون) . . و(الشك والوجود) و(ظواهر الأشياء وحقيقتها) و (معجزة الاسراء والمعراج) . . ولنبدأ حديثنا عن الله والكون . .



الفصل الأول

الله.. والكون

حينما أتحدث عن الله سبحانه وتعالى . . وعن قضية الوجود ، نجد أن هناك كثيرين يحاولون التصدى لهذه القضية بالتشكيك أو بالانكار ويجهدون أنفسهم فى محاولة للوصول إلى أدلة مضللة تثبت نظرياتهم التى تفتقر إلى الدليل الصحيح .

وأحب قبل أن نبدأ هذا الحديث أن أقول أن أمنية كل مسرف على نفسه . . أمنية كل من كانت مصيبته فى دينه ، أمنية كل إنسان يعصى الله ، أن يحاول جاهدا الوصول إلى ما يشكك فى الوجود الالهى . . وهذا نابع من أن فى داخل كل إنسان عاص شيئا يؤرقه وهو يحس أن هناك حسابا وأن هناك آخرة . وأنه سيلقى الله . . وهذا يجعله ينطلق فى محاولاته للتشكيك فى الدين . . عل نفسه تنخدع ولو كذبا بأنه لا حساب ولا عقاب .

ولقد أجهد الفلاسفة أنفسهم خلال سنوات طويلة فى محاولاتهم للتشكيك فى الأديان السماوية . . واستخدموا فى ذلك عقولهم وخداع المنطق فى هذه المحاولات . . بينما ذهب عدد آخر من الفلاسفة إلى أن الدين عبودية ، وأن التحرر من الدين هو الحرية . . وكلا الافتراضين خاطىء فيما يدعيه .

والإيمان بالله قضية مثارة أجهد الناس أنفسهم فيها . . كل واحد يحاول أن يصل إلى وجهة نظره فى هذا الموضوع . . ومعنى هذا الجدل كله الذى يمضى ولن ينتهى . . ومعنى البحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادى . . أو أدلة تنفى وجود هذه القوة . . معناه أننا نعرف الله بالفطرة . . وأنه يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد أن الله موجود . . وإلا لما أنهكت النفس البشرية قواها فى هذا الجدل ولكان العقل البشرى يعيش سعيدا مطمئنا بالعلم المادى الذى خلقه الله له .

ولكننا إذا نظرنا إلى أولئك الذين يعبدون المادة ، نجد فى داخلهم قلقا رهيبا يؤرقهم . . ويخيفهم رغم نجاحهم المادى . . ونجد أعلى نسبة للجنون والانتحار هى فى أكثر دول العالم تقدما من الناحية المادية . . ذلك أن الإنسان قد يحقق من النجاح المادى ما يحسده عليه كثيرون من الذين ينظرون إلى الحياة الدنيوية وحدها . . ولكنه رغم هذا النجاح يعيش فى قلق رهيب لأنه لم يحقق الانسجام بين نفسه وبين الكون . . فالانسجام بين النفس والكون لا يكون إلا بالإيمان بالله واتباع منهجه .

ولنقرأ الآية الكريمة التى يفزع إليها كل مؤمن وهى آية الكرسى يقول الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية « **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** » .. ومعنى الحى أنه دائم الحياة لا يدركه الموت .. لأنه هو الذى خلق الحياة والموت .. ومعنى القيوم أى القائم على ملكه . وهذه تحتاج إلى تفسير .. فبعض الناس يعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون ووضع له قوانينه .. ثم تركه يسير حسب القوانين التى وضعها الله سبحانه وتعالى .. وهى قوانين دقيقة لا تختل بالزمن ولا تتأثر بأى شىء .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه خلق الكون ووضع له قوانينه ولكنه قائم عليه .. أى أن الله سبحانه وتعالى قائم على ملكه لا يتركه لحظة واحدة .

ما معنى هذا الكلام .. معناه أن الله جل جلاله فى وجوده .. يعلمنا ألا نيأس أبدا .. لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى وضع قوانين الكون وطلبَ منا أن نأخذ بالأسباب وأن نتبع هذه القوانين .. ولكن حينما نعجز أمام هذه القوانين ونأخذ بالأسباب فلا نصل إلى شىء ، فهناك دائما « القيوم » القائم على ملكه الذى يمكن أن يفتح الأبواب ويحقق ما نحسبه مستحيلا أو غير ممكن .. فحينما لا تستجيب الأسباب فإن المؤمن يفزع إلى ربه .. ويصيح قائلا « يارب » إيمانا منه بأن الله سبحانه وتعالى قائم على كونه .. ينصر الحق على الباطل .. والمظلوم على الظالم .. ومن هنا حين يفزع إلى الله سبحانه وتعالى .. إنما يعلم أن الله قادر متى عجزت الأسباب .. وأنه إذا كان قد أخذ بالأسباب ولم تستجب إليه فالله سبحانه وتعالى هو قائم على كونه فى كل لحظة وثانية .. يمكنه أن يبدل العسر يسرا .. واليأس أملا وفرجا .

فهاجر رضى الله عنها تركت وليدها عند بئر زمزم وانطلقت تسعى من أجل الماء .. ولكن الأسباب لم تستجب لها .. وبعد سبعة أشواط تعبت وتسرب اليأس إلى قلبها .. فضرب وليدها الأرض بقدمه .. وهو الضعيف الذى لا يملك من أسباب الدنيا شيئا فانفجر الماء .

ومحمد عليه السلام أخذ بالأسباب فى الدعوة .. وعندما خرج من مكة إلى الطائف ولقى ما لقيه من الصبية والسفهاء .. جاءت الأسباب من الله لتحدث الاسراء والمعراج تثبيتا لرسول الله .. ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو أهل مكة والوفود التى تصل إليها فى الحج إلى الإسلام فيعرضون .. ثم جاء وفد من المدينة ليبايع رسول الله ، وكانت بداية الهجرة وانتصار الإسلام .

ولو نظر كل منا إلى حياته لوجد أنه قد مر فيها بأوقات توقفت فيها كل الأسباب ، وأحس باليأس القاتل .. وجلس يقلب المشكلة فلا يجد حلا .. ثم فجأة يأتى الحل من حيث لا يعلم ولا يدرى . إذن فالله سبحانه وتعالى قائم على ملكه ، تفزع إليه النفس المؤمنة فى حالة اليأس فتحس بالاطمئنان والطمأنينة .. لأن الله سبحانه وتعالى يسمع ويرى وهو قائم على ملكه لا يتركه أبدا .

ثم تمضى الآية الكريمة « **لا تأخذه سنة ولا نوم** » ولا تأخذه أى أنه لا ينام أبدا ولا يغفل .. وهنا يريد الله أن يزيد اطمئنان النفس التى يصيبها الفزع من هموم الدنيا ، يريد أن يعيد إليها الطمأنينة والأمان .. يقول سبحانه « **لا تأخذه سنة** » أى لا يغفل عن شيء أبدا ولا لحظة ، ومن هنا فإن هذه النفس المؤمنة تكون مطمئنة لأن الله سبحانه وتعالى ليس غافلا عما يعمل الظالمون .. « **لا تأخذه سنة** » وتكون هذه النفس فى حياة طيبة تنام ليلها ملء جفونها .. لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا ينام .. ومن هنا فإنه يقول لصاحب النفس المؤمنة .. نم أنت ولا تخش شيئا فإننى لا أنام .. أنا أحرسك وأنت نائم وأنت مستيقظ .. فلا تدع القلق يدخل نفسك وتحسب انك إن نمت ليلك نال منك أعداؤك .. تذكر دائما وأنت تذهب إلى فراشك لتنام والقلق يملأ قلبك فاننى أنا الله لا أنام وأعرف وأشهد كل شيء فكن مطمئنا لى ، وكن مطمئنا لحمايتى .. وإذا كان الإنسان ينام مطمئنا إذا وضع على باب منزله حارسا أو خفيرا أو رجلا ساهرا لا ينام الليل ، فكيف بمن يحرسه الله وكيف يكون الأمن الذى يحس به وهو يعلم أن القوة التى خلقت هذا الكون كله وأوجدته هى التى تحرسه .. ومن هنا فإن المؤمن يحس دائما بالاطمئنان إلى الله وبالأمان فى رعاية الله له فى أحلك الأوقات وفى أشد اللحظات .

وتمضى الآية الكريمة لتزيد من انسجام النفس البشرية مع الكون الذى خلقه الله فيقول الحق « **له ما فى السموات وما فى الأرض** » هنا زيادة فى ادخال الاطمئنان على النفس البشرية ، فالله سبحانه وتعالى يقول لعبده مم تخاف من رزق لن تحصل عليه غدا ، أو من عمل لن تنجزه غدا ، أو من مال محتاج إليه لن يأتيك غدا .. تذكر أن كل ما فى السموات وما فى الأرض هو ملكى أعطى من أشاء وأمنع عمن أشاء .. ففيم القلق وأنا الذى أملك وأعطى .. وفيم التفكير وأنا قادر على أن أعطيك ما تريد ، لأن كل الذى تراه أمامك وكثيرا مما لا تراه هو ملكى أعطى منه ما أشاء لمن أشاء .. إياك أن تفزع من الغد وأن

تخاف وأن تحس انك وحدك فى هذه الدنيا .. بل انني معك وأنا حى لا أموت .. دائم الوجود ولا أنام أبدا ولا أغفل .. كل شىء فى السموات والأرض هو ملكى .. ومادمت أنت عبدى وآمنت بى .. فاطمئن الى قضائى .. فإن كنت أرزق من يكفر بى وأطلب منك أن تستر من عصانى .. فكيف بمن أطاعنى وآمن بى !

وتمضى الآية الكريمة فتقول « **من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه** » .. وهنا يريد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد لنا انه لا يعطى الشفاعة إلا لمن أذن له .. أى أنه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لا تخف من أى إنسان فى الدنيا مهما كان ظالما .. ولا تخش أحدا مهما كان جبارا .. فهؤلاء جميعا ليس لهم شفاعة عندى حتى أمكنهم منك .. ولكن الذى له الشفاعة عندى هو من آذن له .. ومن يأذن الله له يجب أن يكون قريبا من الله .. وكل ظالم وجبار فى الأرض هو بعيد عن الله سبحانه وتعالى .

ثم تمضى الآية الكريمة بعد ذلك فتقول « **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء** » .. أى أن الله سبحانه وتعالى يريد زيادة فى ادخال الإيمان والاطمئنان إلى قلب من يعبده فيقول له ولا تحسب انى لا أعرف ما يحدث وما يدبر لك فانني أعلم ما بين أيديهم ، أى ما يظهرونه ، وما خلفهم ، أى ما يسترونه أو يخفونه .. لأننى مطلع على الأعمال وعلى النوايا وعلى ما تخفى الصدور .. ولذلك لا تخش أن يفوتنى شىء .. أو يخفى على أى من خلقى حتى ما يدور فى صدورهم .. ولا يبوحون به لأحد .. وقول الله سبحانه وتعالى « **يعلم السر وأخفى** » معناه أن الله سبحانه وتعالى يعلم السر .. ما هو السر .. شىء مشترك بين اثنين .. أى شىء اعتزمت أن أقوم به وأسررت به لأحد من أصدقائى أو أقاربى .. ذلك أن السر ، أى ما يسر به لغيره .. أى ما يقوله له فيما بينهما سرا .. وما أخفى أى ما يخفيه فى صدره ولا يبوح به لأحد .. أى يبقى هذا الأمر فى صدره .. ولا يخرج إلى لسانه أبدا .. وبقاؤه فى صدره دون أن يسر به لأحد لا يجعله خافيا على الله سبحانه وتعالى .. ولكن الله مطلع عليه إذا كان هذا هو الحال .. فمم تخاف .. وإذا كان الله يعلم كل شىء فما الذى يفزعك .. وإذا كان الله لا ينام فلماذا تخشى أنت النوم أو يذهب النوم عن عينيك ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** » . . أى أن علم الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يحيط به أحد إلا ما يعطيه الله لمن شاء . . وهناك علم يعطيه الله لمن شاء من عباده . . وهناك علم يعطيه الله للبشرية كلها . . وهناك علم يختص الله به نفسه ولا يعطيه لأحد من عباده .

والعلم الذى يعطيه الله لمن يشاء من عباده هو ما يعطيه الله لرسله وأوليائه الصالحين وهذا كشف بين الله وبين من شاء من عباده لا يمكن التحدث فيه لأنه عطاء محدود بالعبد ذاته . ومختص به وليس موضوعا عاما للمناقشة . . أما العلم الذى يعطيه الله للبشرية كلها فهو العلم المادى الذى يكشف الله عنه للبشر جيلا بعد جيل . . وهذا العلم لكل جزء فيه ميلاد حدده الله سبحانه وتعالى فإذا صادف مولد من العلم إنسانا أو أناسا يبحثون ويجتهدون للوصول إليه أعطاه الله سبحانه وتعالى لهم . . وإذا لم يصادف هذا العلم أناسا يبحثون عنه أعطاه الله للبشرية بما نسميه (الصدفة) . . كأن يكون هناك باحث يبحث عن شيء فيكتشف شيئا آخر مخالفا له تماما . . هذا الكشف الذى لم يأت مطابقا للبحث الذى يتم وإنما جاء بطريقة الصدفة يكون كشفا من الله لأن موعد ميلاد العلم للبشرية قد أتى . . ولذلك فإننا نسمع كثيرا عن عالم يجرى بحثا للوصول إلى نتائج معينة . . وفجأة وهو فى أبحاثه يفاجأ باكتشاف لم يكن يتوقعه ولا يعرف أنه سيصل إليه . . كيف تم ذلك ؟ نحن نقول بطريق الصدفة . . ولكنه فى الحقيقة هو موعد ميلاد العلم للبشرية . . ولذلك خرج إلى الوجود من علم الله إلى علم البشر بكلمة « كن » . . لأن موعد ميلاده المحدد منذ الأزل قد حان .

هذا هو العلم البشرى . . أما علم الله سبحانه وتعالى الذى يختص به نفسه فهذا لا يصل إليه بشر . . وهنا ونحن نأخذ المعنى الاجمالى للآية نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول ، ومهما كان علم أولئك الذين يتربصون بك . . ومهما أعدوا . . فإن الله هو الذى يعلم . . ويعلم فوق علمهم . . ويعلم ما يفسد هذا العلم ويجعله عاجزا . . كل هذا ليحس القلب المؤمن بالاطمئنان إلى قضاء الله . . وبأنه فى أمان وأمن مادام الله سبحانه وتعالى يرعاه ويحرسه .

على انى قبل أن أمضى فى هذا الحديث أريد أن أشرح نقطة هامة تكمل المعنى . . هى أن الله سبحانه وتعالى له عطاء ربوبية . . وعطاء ألوهية . . الله سبحانه وتعالى كرب العالمين يعطى الجميع عطاء ربوبية . . ومن هنا قوله تعالى « **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست**

بربكم قالوا بلى » . . لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى ألست إلهكم . . ويشهدهم بالألوهية . . لأن العطاء هنا عطاء ربوبية . . الله رب العالمين . . ما هو عطاء الربوبية ؟

عطاء الربوبية هو عطاء متساو لخلق الله جميعا . . كل من خلقه الله أعطاه عطاء الربوبية . . فمثلا الله سبحانه وتعالى خلق الكون وسخره للإنسان . . والكون فيه قوى كثيرة أكبر وأضخم وأقوى من الإنسان ولكنها خاضعة له بحكم أن الله سبحانه وتعالى قد سخرها له . . فالشمس والأرض والرياح ، وكل القوى الهائلة فى هذا الكون هى أكبر كثيرا من الإنسان . . الشمس تستطيع أن تحرق الأرض بمن فيها . . والأرض إذا اختل دورانها فنى البشر . . والريح تستطيع أن تدمر . . والماء يستطيع أن يغرق والأمطار إذا توقفت تجف الأنهار وتنعدم الحياة . . كل هذه القوى وغيرها مما خلق الله من توازن فى الكون هى قوى أقدر من الإنسان وأكبر منه . . ولكنها مسخرة لخدمة البشر . . فالشمس لا تستطيع أن تقول سأشرق اليوم وسأغيب غدا . . والماء لا يستطيع أن يغرق الأرض أو يجعلها كلها يابسة ويختفى منها ويرحل . . والأرض لا تستطيع أن تتوقف عن الدوران بإرادتها . . لكنها كلها كقوى هائلة ، مسخرة لخدمة الإنسان بإرادة الله . . فهى لا إرادة لها . . ولا تستطيع أن تعصى لله أمرا . .

والله فى عطائه لهذه القدرات عطاء ربوبية أى أنه لا يفرق بين مؤمن وكافر . . بل يعطى خلقه جميعا . . الشمس تشرق للمؤمن والكافر . . والأرض يزرعها من آمن ومن لم يؤمن . . والمطر ينزل على أمة مؤمنة وعلى أناس لا يعبدون الله . . قوانين الأرض هى عطاء ربوبية . . فالذى يفلح أرضه جيدا ويعتنى بها يحصل على ثمر وفير سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن . . والذى يهمل أرضه ولا يزرعها لا يحصل على شيء مهما كان إيمانه . . والذى يستفيد بعلم الله الذى كشفه الله للبشرية فى أن ينشيء صناعة حديثة . . أو أن يحرز التقدم فى الدنيا يجنى ثمرة ما فعل . . وهكذا فالله فى عطاء ربوبيته لا يفرق بين إنسان وإنسان . . والقوانين التى وضعها الله فى الأرض والأسباب التى خلقها تتفاعل مع من يأخذ بها سواء كان مؤمنا أو كافرا . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى حين أشهد خلقه عليه « **ألست بربكم** » .

هناك بعد ذلك عطاء ألوهية . . وعطاء الألوهية هو العطاء لمن يؤمن بأن لا إله إلا الله . . الإيمان هنا هو عهد بين الإنسان وربه . . ولذلك نجد أن

القرآن الكريم يبدأ آياته فى سورة البقرة بقول الله تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾

ونجد الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز يخاطب دائما المؤمنين بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » . . إذن الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو الأساس فى عطاء الألوهية . . وهذا العطاء هو الذى يوجد فى القرآن الكريم . . هو إيمان بالغيب . . إيمان بالبعث والحساب . . ثم طريق للحياة الآمنة المطمئنة الطيبة . . رسمها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز للذين آمنوا . .

إذن عطاء الألوهية هو الحياة الطيبة فى الدنيا وفى الآخرة لمن آمن بالله ولم يشرك به شيئا واتبع الطريق الذى رسمه الله للحياة فى كتابه الكريم وبينه لنا . . وفى هذا الطريق اصلاح لكل مفاسد الحياة . . وخلق لمجتمع كامل تسوده الرفاهية . . ويسوده الأمن . . وتملؤه البركة .

ونحن فى كثير من الأحيان نأخذ تشريعاتنا عن بشر . . ثم بعد ذلك نتعجب للشقاء الموجود فى المجتمع والذى تخلقه هذه التشريعات . . ولو أخذنا ما وضعه الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز . . لأخذنا أكمل ما يمكن للبشرية أن تنشىء به مجتمعا فاضلا . . ذلك لأنه شتان بين قدرة البشر وقدرة الله سبحانه وتعالى . . والله خالق النفس البشرية وخالق هذا الكون ، هو أعلم بما يسعده وبأصلح ما فى الحياة له . .

ولذلك فإن القلب المؤمن الذى يتبع طريق الله يحس فى داخله بعطاء الألوهية فيملؤه الاطمئنان . . وعندما نزلت الآية الكريمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله يعصمك من الناس » . . أمر رسول الله أصحابه الذين كانوا يحيطون به ليدافعوا عنه إذا حاول الكفار أو المنافقون ايذاءه أمرهم أن يتركوه . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى وهو القوة الكبرى التى خلقت كل شىء . . يحرسه

فلا يحتاج لبشر .. ولا يستطيع بشر أن يقترب منه أو يؤذيه .. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينام تحت ظل شجرة وبلا حراسة .. لماذا ؟ لأن قلبه كان مليئا بالآية الكريمة « لا تأخذه سنة ولا نوم » .. ومن هنا كان ينام مطمئنا وحده تحت ظل الشجرة ، مؤمنا بأن الله سبحانه وتعالى الذى لا ينام هو أقوى وأقدر من يحرسه .. وهو أقوى وأقدر من كل حراسات الدنيا ولذلك نام تحت الشجرة فى حراسة الله سبحانه وتعالى .. ولم يستطع أحد أن يقترب منه .

إذن فقضية الإيمان .. أن نؤمن بالله أو لا نؤمن .. والإيمان بالله معناه انك قد آمنت وصدقت بأن هناك قوة كبرى .. تتنزه عن كل هوى وغرض .. هى التى خلقت هذا الكون وسخرته لك .. وأن هذه القوة أو القدرة ليس كمثلها شىء .. فى العلم .. والخلق .. والرحمة .. والانتقام .. إلى آخر صفات الله سبحانه وتعالى .. ومن هنا فإذا دخل الإيمان القلب فلا يجب أن نقيس علمنا بعلم الله سبحانه وتعالى .. ولا قدرتنا بقدرة الله سبحانه وتعالى .. فإذا قال الله افعل .. فأنا لست مؤهلا لأن أقول لماذا .. لأن النقاش لا يكون إلا بين عقلين متساويين .. وشتان بين قدرة الله وقدرة البشر .. وإذا قال لا تفعل فأنا لست مؤهلا لأن أقول لماذا .. لأن علم الله لا يمكن أن يقاس بعلمى .. ومع ذلك نجد بعض الناس يجادل بلا خجل ويدعى أنه مؤهل لمناقشة الله فى علمه ولمناقشة الله فى طريق الحياة الذى رسمه للبشر .

الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو تسليم لقدرات الله التى ليست فوقها قدرة .. ولعلم الله الذى ليس فوقه علم .. ولله سبحانه وتعالى الذى ليس كمثله شىء .. وهذا هو مدخل الإيمان إلى النفس البشرية .. وهو مدخل لا يأتى إلا بعد تفكر وتدبر فى الكون وآياته .

على أن بعض الناس يسمى ذلك عبودية ، ويقول ان الدين عبودية .. ونحن نقول نعم الدين عبودية لله سبحانه وتعالى .. وفرق كبير بين العبودية لله والعبودية للبشر .. البشر عندما يستعبدك يريد أن يأخذ منك أو من قدراتك ليضمها إلى قدراته ويجردك من الخير الذى تستطيع أن تحققه ليضمه إلى الخير الذى يملكه فإذا استعبد إنسان مجموعة من البشر ، فإنه يجعلهم يعملون من أجله فيزرعون الأرض ويأخذ هو المحصول ويقيمون العمارات ويتملكها هو .. أى أن عبودية البشر هى تجريد للعبد من كل خير يستطيع أن يحققه لصالحه .. وهذه العبودية يرفضها الإسلام .

أما عبودية لله سبحانه وتعالى فهى عبودية لتزيد من قدراتك وتمنحك الخير والبركة ، وتزيد من عطاء الله لك فهى عبودية لصالحك .. فالله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين .. غنى عن جهدك .. وعن مالك .. وعما تملك جوازا فى الدنيا .. بل إن الله سبحانه وتعالى هو صاحب كل شىء .. فالمال مال الله .. ينتقل من يد إلى يد .. ولا يأخذ منه كل إنسان إلا رزقه .. بل إن الله سبحانه وتعالى قد قال « وللرجال نصيب مما اكتسبوا » ليوضح الحكمة البالغة بأن الرزق الذى تحصل عليه أو الكسب الذى تصيبه ليس لك وحدك .. فلزوجتك نصيب .. ولأولادك نصيب .. ولعدد من خلق الله نصيب .. بل إننا نتعجب أحيانا من إنسان بخيل لا يمتع نفسه بما رزقه الله .. ونتساءل فى عجب لماذا يفعل ذلك .. وربما نلومه على ما يفعل .. والجواب على ذلك أن هذا المال الذى اكتسبه والذى يحرص عليه ليس رزقه ولكنه رزق خلق آخرين .. وهو مجرد حارس عليه حتى يوصله إليهم .. ومن هنا فإنه لا يستطيع أن ينفق منه ولا أن يتمتع به .. وليبقى هكذا الرزق دون أن يمس حتى يصل إلى صاحبه .

فالعبودية لله سبحانه وتعالى هى عبودية عطاء .. عطاء من الله لعباده .. والله له ملك السموات والأرض .. وهو لا يريد أن نعبده ليأخذ جهدنا ، أو ليحصل على ناتج عملنا أو ليكون له رزقنا .. بل هو الذى يرزقنا ويعطينا .. ويمنحنا ويبارك لنا فى جهدنا .. وهو الذى ييسر لنا كل أمر عسير .. ويفتح أمامنا الأبواب المغلقة .. فالعبودية لله سبحانه وتعالى هى لصالح العبد .. هى زيادة للعبد فى كل شىء .. وبركة له فى ماله وصحته وأولاده وحفظ له من كل شر وسوء .

عبوديتنا لله تجعل الله عونا لنا فى كل أمورنا .. ومن منا لا يريد أن يكون خالق السموات والأرض عونا له على ما يريد .. ومن هنا فإن عبوديتنا لله نحن نرجوها ونطلبها .. ليعيننا الله ويكون معنا .. بينما عبودية الإنسان للإنسان هى أخذ من جهد الإنسان وعرقه وعمله لإنسان آخر .. وشتان بين الاثنين .

والله سبحانه وتعالى قد وعد عباده المؤمنين بالحياة الطيبة .. فهو عندما يقول افعل يريد لى بهذا الفعل السعادة فى الدنيا والآخرة .. لأن فعلى لن يزيد فى ملك الله شيئا .. وعدم فعله لا ينقص من ملكه شيئا .. ومن منطلق الإيمان عندما أتبع طريق الله فاننى أختار الحياة الطيبة ليس حسب قدراتى أنا .. ولكن

حسب قدرات الله سبحانه وتعالى الذى ليس كمثله شيء . . ومن منطلق عدم الإيمان فاننى أناقش وأفلسف وأقرر حسب قدراتى . . والفرق بين الإيمان وعدم الإيمان هو اختيار بين حياة رسمها الله سبحانه وتعالى بقدراته التى لا تحدها حدود ولا قيود . . وبعلمه الذى لا يصل إليه إنسان . . وبين حياة أرسمها أنا بعقلى المحدود . . والهوى الذى يملأ نفسى . .

والله سبحانه وتعالى فى كل رسالاته السماوية طلب منا أن نتدبر فى الكون . . وأن نبحث عن آيات الله . . لماذا يأمرنا الله بهذا . . لو أن فى هذا الكون دليلا واحدا على عدم قدرة الله ووحدانيته . . ما أمرنا الله أن نتدبر فى الكون . . وأن نتدبر فى أنفسنا . . لماذا ؟ لأن الذى يعرض عليك شيئا فيه أدنى شك . . لا يقول لك افحصه جيدا . . وإنما يحاول بشتى الطرق أن يجذب انتباهك عن هذا الشيء الذى تنظر إليه حتى لا تتبين فيه أى نقص أو عيوب . . أما الذى يقول لك تدبر وفكر وانظر . . فهو موقن من اتقان العمل . . ولذلك يريدك أن ترى الابداع والاتقان الموجود . . وأن تشهده لتعرف قيمة وروعة الخلق .

ولأضرب مثلا بسيطا يقرب ذلك إلى الأذهان . . إذا دخلت لتشترى أى شيء فى هذه الدنيا . . وجاء إليك صاحب الشيء أو صانعه . . فهو إما أن يكون أحد أمرين : أن يكون الشيء متقنا اتقانا بديعا وحينئذ يقول لك صانعه افحصه جيدا . . فإذا فحصته مرة . . طلب منك أن تفحصه مرات ومرات . . لماذا ؟ لتتبين دقة الصنع وتعرف كمال الشيء . . فإذا انتهيت من فحصه قال لك افحصه مرة أخرى . . وهكذا يظل يطلب منك أن تفحص الشيء مرات ومرات . . وإما أن يكون الشيء فيه عيوب . . والصانع يحاول أن يغشك ويخدعك . . وحينئذ يفعل كل ما يستطيع من الحيل ليأخذ انتباهك عما فى يدك . . حتى لا تتبين عيوبه أو النقص الذى فيه . .

والله سبحانه وتعالى يطلب منا فى قرآنه الكريم أن نتدبر الخلق ونتدبر الكون . . ويقول ان فى هذا الكون آيات بينات . . وأن فى خلقكم وخلق السموات والأرض آيات بينات وفى أنفسكم ويقول سبحانه وتعالى « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** » .

إذا لم يكن قائل هذا الكلام هو خالق الكون وخالق البشر وعالم بأسرار كل شيء . . أفلا يخشى أن تكون هناك عيوب ونواقص وأشياء لا يعرفها قد يأتى التدبر فيها بنتيجة عكسية . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الخالق . . وهو

القائل .. وهو العالم .. وهو يعرف دقة ما خلق .. ولذلك يقول تدبروا فى الكون .. انظروا فيه .. ستجدون آياتى واعجاز خلقى وقدرتى .. انظروا فى أنفسكم .. ويؤكد سبحانه وتعالى « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** » .. أى آيات تلك التى يتحدث عنها الله سبحانه وتعالى .. ويتحدى بها .. إلا إذا كان قد خلقها بقدرة واعجاز ؟

إذن هذا التحدى فى التدبر فى آيات الكون .. والتدبر فى الخلق والتدبر فى أنفسنا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان القائل هو الخالق .. هو الذى وضع آيات ومعجزات فى هذا الكون .. تدل على عظمته .. وعلى قدرته .

ونحن حينما نتدبر فى الكون نرى عظمة الله سبحانه وتعالى .. وهذا هو الهدف الأول للعقل البشرى .. أن يتدبر فى الكون ويعرف ماذا خلق الله سبحانه وتعالى .. وأنه لن ينسجم مع هذا الكون إلا إذا خضع لخالقه .

ولكن الإنسان الذى أخذ الأمانة فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

ما هى الأمانة .. الأمانة هنا معناها حرية الاختيار .. دون أى ضغط خارجى .. ووصف الله سبحانه وتعالى للإنسان بأنه جهول عندما قبل أن يحمل الأمانة .. معناه أنه لم يعلم .. ولم يقدر مسئولية هذه الأمانة وثقلها ..

ولنضرب مثلا صغيرا يقرب هذا إلى الأذهان .. لنفرض أن إنسانا قد جاءنى وأعطانى مبلغا من المال .. وقال هذا أمانة عندك .. ثم أتى كل شهر .. أو كل فترة ليعطينى مبلغا آخر ويقول هذا أمانة عندك .. وأخذت أنا هذا المال ومتعت به نفسى وأسرفت عليها وبذرت .. ثم جاء وقت السداد .. وجاء صاحب المال يطلب ماله .. وأنا ليس عندى منه شىء .. هذا هو ما يحدث فى الدنيا .. الله سبحانه وتعالى أعطانا من النعم ما لا يعد ولا يحصى .. وقال تمتع بهذا كله . ولكن عليك أمانة تحملها .. هى ألا تفسد فى الأرض .. وألا تسرق ..

وألا تستخدم نعمى فى معصيتى او فى ظلم الناس .. وقبل الإنسان الأمانة .. ولكن الشيطان استطاع أن يتسلل إلى نفسه منتهزا الفرصة فى أن الإنسان قد حمل الأمانة أى حرية القرار .. والله قال له افعل .. وقال لا تفعل .. وفى هذه الحالة لم يضع على ارادته الحرة أى قيد أو ضغط .. ومادام الإنسان قد أعطى حرية الاختيار .. فكأن هناك الحساب .. الرسالات السماوية التى أرسلها الله سبحانه وتعالى بينت للإنسان الطريق .. ولكن الأمانة التى حملها .. والتى رفضت كل مخلوقات الله أن تحملها .. أعطته الحرية فى أن يفعل أو لا يفعل .. وفى أن يخالف وأن يعصى .. ومادام الله قد قال افعل فمعنى قوله تعالى أن فى مقدور الإنسان أن يفعل أو لا يفعل .. ومادام الله قد قال فى أشياء لا تفعل فإنه فى مقدور الإنسان أن يفعل أو لا يفعل .. والإنسان وحده هو القادر على ذلك .. فالجبال مثلا ليس لها اختيار .. وكذلك الشمس والقمر والنجوم .. فالشمس لا تستطيع أن تقول سأشرق اليوم أو لن أشرق والنجوم لا تستطيع أن تختار أن تسطع ليلة وتغيب ليلة أخرى .. بل ان الملائكة ليس لهم اختيار وإنما يفعلون ما يؤمرون .. ولكن الإنسان الذى حمل الأمانة .. أخذ حرية الاختيار فى الدنيا .. فماذا فعل ؟

صور له جهله أشياء كثيرة .. فعبد أشياء لا تنفع ولا تضر .. عبد الشمس والنار والأحجار والأصنام والحيوانات المفترسة .. انطلق يعبد كل شيء صوره له جهله .. وأضله الشيطان عن الله سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون المدبر له .. انطلق الإنسان جاحدا نعمة الله .. وترك الرسالات التى أنزلها الله سبحانه وتعالى رحمة به ليبين له طريق الحياة الآمنة الطيبة .. وأخذ يشرع لنفسه تاركا شريعة الله .. وتغلبت عليه أهواؤه .. فأخذ يخضع الأشياء لهوى النفس وليس للحق .. فأصابه الشقاء فى الدنيا وحلت به الكوارث .

ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك ... لقد لخص الله سبحانه وتعالى فى بلاغة رائعة ووصف بليغ مدخل الشيطان إلى النفس البشرية حين أورد لنا فى القرآن الكريم كيف أغرى الشيطان آدم بمعصية الله .. ذلك أنه حين تم الاغراء .. تم بجملة واحدة أوردها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى وهو يصف اغراء الشيطان للإنسان :

« هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »

إذن الإنسان يريد شيئين من الدنيا . . حياة خالدة لا تنتهى . . ومالا وفيرا لا يفنى . . يريد أن يبقى خالدا لا يموت . . وأن يكون له ملك يوفر له حياة الترف والعبث التى تهواها النفس . . وألا يتأثر ماله بكل ما ينفقه . . وألا يتأثر عمره بالسنوات . . يريد شبابا دائما . . وكنوزا لا تعد ولا تحصى . . ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية . . هذه الآلهة كلها التى اخترعها الإنسان وعبدها كانت إما وهما جالبة للرزق والجاه فى الدنيا . . أو وهما دافعة لأذى أو مرض يؤدى للموت وهى فى مجموعها لا تخرج عن ذلك أبدا . . بل إن عبادة الناس للبشر تأتى من خلال هذين المدخلين . . فهو إما أن يرجو رزقا يتمتع به . . أو يرجو شفاء وقدرة لطول الحياة بما يصوره له وهمه من قدرات يعتقدها فى بشر . . والحقيقة إن هذه الآلهة لا تفعل هذا ولا ذاك ولا تملك النفع والضر حتى لنفسها . . ولكن الخوف الذى يضعه الشيطان فى النفس غير المؤمنة هو الذى يجعلها تضعف إلى الدرجة التى تعتقد فيها أن هناك شيئا فى يد أحد غير الله سبحانه وتعالى .

ومن هنا فإن هذا النفع أو الضر الوهمى هو خوف فى النفس البشرية . . يدخل بسبب عدم الإيمان . . وإلا فالنفس المؤمنة تعلم أن الله معها . . وأن هذه القدرة الخارقة القادرة هى التى تدافع عنها وتحميها وترعاها وتحرسها حتى عندما تنام كل الأعين لأن عين الله لا تنام .

والذى يؤمن إيمانا حقيقيا بذلك . . ليس محتاجا لأن يستعين بمن هم أقل قدرة من الله . . وشتان بين قدرة البشر وقدرة الله سبحانه وتعالى . . فكونى أترك القدرة المطلقة إلى ما لا ينفع ولا يضر بعدم إيمانى . . هو جهل منى يجعلنى التجىء إلى غير الله . . وهذا الجهل وضعه فى نفسى هوى أنا أريد أن أحققه .

ولنوضح هذه النقطة قليلا . . أنا مثلا عندى مال . . ولكنى أريد أن أحصل على مال غيرى وبدون وجه حق . . الحياة السعيدة التى رسمها الله لى تقول لى لا . . لا تفعل ذلك . . وهى تقول هذا لتحمينى أولا . . فأنا فرد واحد فى مجتمع . . عندما أستبيح مال غيرى وأجعل هذا مبدأ . . فإن هناك ملايين من الأشخاص فى هذا المجتمع يكون لهم الحق فى أن يستبيحوا مالى . . ومن هنا حرم الله سبحانه وتعالى ذلك ليحمينى . ولو كنت أتدبر لعرفت أن عدم استباحة مال غيرى هو حماية لى ولمالى . . ولكننى أريد ملكا لا يبلى والشيطان يعمل على ذلك . . والله أخبرنى عن مدخل الشيطان إلى نفسى حتى أعرفه . . وأقى نفسى

الزلل والانزلاق . . ولكنى مع ذلك أنطلق لهوى فى نفسى . . وهو أن أملك . . وأملك بلا حدود ملكا لا يبلى فآخذ مال غيرى . . حينئذ تقفز إلى النفس البشرية التى هى فى أعماقى والتى رأت الله وتعرفه جيدا مصداقا لقول الله « **ألست بربكم . قالوا بلى** » هذه النفس تؤرقنى . . أحس فيها بما ينتظرنى جزاء لهذه المعصية . ومن هنا فإننى أحاول بقدر طاقتى ـ ولو وهما ـ أن أحتمى بأى شىء تاركا شريعة الله لهوى فى نفسى فآتى بحجر وأدعى انه هو الذى جلب لى الرزق . . أو آتى بحجر وأقنع نفسى زيفا بأنه سيحمينى من عذاب الله . . أحاول أن أطمئن نفسى وأزيل عنها القلق الذى يملأ النفس البشرية ويؤرقها ويحطمها عندما تغرق فى المعصية . .

ولنضرب لذلك مثلا لو أننا أتينا بشاب فى ريعان شبابه ثم جئنا له بأجمل فتيات الدنيا ، وقلنا له هى لك هذه الليلة . . ثم فتحنا له بابا مستورا فى الحجرة ليرى « النار » وقلنا له بعد هذه الليلة سيكون مصيرك هنا . . فهل تعتقد أنه سيرتكب المعصية . . الجواب . . أبدا . . ولكن لأن الجزاء مستور عنا فإن الشيطان يدخل إلى النفس البشرية محاولا ايهامها بأنه لا جزاء . . وهذا الوهم يصبح هوى فى النفس لأنه يطلق لها العنان لشهواتها . . ويحل لها أن تظلم غيرها ، وتأخذ حقه . . ومن هنا فإنها فى محاولة انكار وجود الله سبحانه وتعالى وتحاول أن تبذر الشك . . فإن أقصى ما تتمناه النفس العاصية هو أن يكون الله ليس موجودا . . ولكن الله موجود والشك فى وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لهذا الوجود . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

حديث قدسى

●● أوحى الله عز وجل إلى داود « وعزتى وجلالى ما من عبد يعتصم بى دون خلقى أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات بمن فيها ، والأرض بمن فيها ، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا ، وما من عبد يعتصم بمخلوق دونى ، أعرف ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السماء بين يديه ، وأرسخت الهواء من تحت قدميه ، وما من عبد يطيعنى إلا وأنا معطيه قبل أن يسألنى ، ومستجيب له قبل أن يدعونى ، وغافر له قبل أن يستغفرنى » .

الفصل الثاني

الشك.. والوجود

الشك .. والوجود

الإسلام إما أن يكون عن عقيدة . . فهو دين . . وإما أن يكون عن غير عقيدة فهو نفاق . . ولكى نبدأ الحديث يجب أن نحدد . . ما هو معنى العقيدة أولا ؟ العقيدة هى قضية اختمرت فى القلب اختمارا . . واقتنعت بها تماما . . بحيث أصبحت عندك يقينا لا يطفو إلى العقل لتناقش من جديد . . قضية قتلتها بحثا وتمحيصا ودراسة ومناقشة . . واقتنعت بها تماما . . بحيث أصبحت عندك يقينا لا يطفو إلى الذهن مرة أخرى . . فإذا طفت إلى العقل لتناقش من جديد . . فالإيمان هنا ناقص . . ولذلك حين قالت الأعراب آمنا . . ماذا قال الله لهم .

« قل لم تؤمنوا . . ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم »

إذن الإيمان هو عقيدة اقتنع بها القلب تماما . . بحيث لم تعد تطفو إلى العقل لتناقش من جديد . . وهو لا يأتى فى منطقة الحس . . أو المنطقة التى تخضع للحواس عندنا . . بمعنى أنك لا يمكن أن تقول لإنسان أنا مؤمن . . اننى أراك أمامى . . وأنت تراه أمامك فعلا . . ولا تستطيع أن تقول أيضا اننى مؤمن . . إن هذا الكوب ممتلىء . . والكوب ممتلىء بالماء . . وأنت تراه أمامك . . تلك ليست منطقة الإيمان . . ولكن منطقة الإيمان هى الغيب . . شىء غيبى عنك لا تراه ولا تستطيع أن تصل إليه بحواسك . . ولذلك فإننا فى كثير من الأحيان نحاول أن نشبه الإيمان بأنه يقين عندنا كالشىء الذى تراه . . فتقول أنا متأكد أن هذا سيحدث . . أو أنا مؤمن أن هذا سيحدث . . كما أراك أمامى تماما . . الذى سيحدث هو غيب عنى . . قد يحدث وقد لا يحدث . . أنا لا أستطيع هنا أن أقطع بذلك . . ولكن تصديقا منى للإيمان . . فأنا أقول إن هذا سيحدث كما أراك أمامى . . يقينا بالغيب .

وإذا كان ذلك فى أمور الدنيا الصغيرة . . فكيف فى الإيمان بالله سبحانه وتعالى . . اليقين هنا يجب أن يكون على درجة عالية . . أن تعبد الله كأنك تراه . . فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . وحين تشبه العبادة هنا بالرؤية . . فالرؤية ليست قضية جدلية . . بمعنى أنك ترى الشىء أو لا تراه . . الإيمان أيضا إذا خرج إلى دائرة الجدل والمناقشة الذهنية . . خرج عن معناه ولم يصبح إيمانا . . مادام هناك جدل مايزال فى العقل . . فالإيمان غير كامل . .

ولكن فيم يدور الجدل .. إنه يدور حول الدليل عن وجود الله .. أو محاولة انكار وجود الله .. نأتى أولا إلى الذى يجادل فى الدليل على وجود الله .. ونسأله : حينما أقبلت على وضع الدليل على وجود الله .. فما الذى حملك على ذلك .. ما الذى جعلك تتعب عقلك وفكرك لتضع الدليل على وجود الله .. الذى دفعك لذلك هو أن الله موجود فينا بالفطرة .. فينا جميعا .. أولئك الذين يؤمنون به فيطيعونه .. ويعملون بتعاليمه .. وأولئك الذين يسرفون على أنفسهم .. ويشعرون بعظم العقاب الذى ينتظرهم .. تحسه نفوسهم التى تعرف الله بفطرتها .. فيجهدون عقولهم فى محاولة النيل من دين الله .. وهم فى الحقيقة يحاولون الهرب ولو عقليا .. ولو بطريق التضليل من حساب هو واقع عليهم ..

إذن الذى يحاول أن يضع الأدلة على وجود الله .. فى الحقيقة قد أثبت هذا الوجود دون حاجة إلى دليل .. فالدليل على وجود الله .. هو طلب الدليل على وجود الله .. ذلك أن طلب هذا الدليل .. واجهاد العقل فيه .. معناه أن الله موجود فينا بالفطرة .. نحس به ونشعر بوجوده .. ونعرف أنه موجود ..

إذن فوجود الله سابق لمحاولة الوصول إلى دليل .. وهذه المحاولة التى هى قائمة وستظل قائمة إلى أن تنتهى الحياة ، إنما هى اعلان بأن الله موجود .. ونحن نحاول أن نستخدم ما يلائم عقولنا من أدلة .. ولو بحثنا ودققنا فى الرسالات السماوية التى أرسلها الله لنا .. لوجدنا أكبر الأدلة وأقواها موضوعة بالطريقة التى تناسب العقل البشرى وقدراته الماضية والحالية والمستقبلة ومفصلة تفصيلا يملؤه الاعجاز ..

وإذا دققنا فى علم الله ووصوله إلى الإنسان .. فهو اتصال الكلمات بالعقل .. أو كما قال الله سبحانه وتعالى « **وعلم آدم الأسماء كلها** » أى أنه سبحانه وتعالى .. علم آدم معانى الأشياء وأسماءها . ثم أتى الله سبحانه وتعالى بالملائكة ، وقال لهم أنبئونى بأسماء هؤلاء .. فلم يعرفوا .. وقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ..

إذن .. المعنى يجب أن يوجد أولا .. أو الشىء يجب أن يوجد أولا .. ويكون مفهوما لدى السامع .. وموجود أصلا فى ذهنه .. ثم تأتى الكلمة لتبرز هذا المعنى إلى العقل .. فإذا قلنا منزل مثلا ، فإن له معنى معينا فى عقولنا .. هو مكان يقيم فيه الناس مكون من عدة حجرات .. إلى آخر ذلك .. ومن هنا

فإنه إذا ذكرت الكلمة . . قفز المعنى الموجود أصلا فى العقل لتكون مقبولة . . أو إذا قلت كلمة بلا معنى لم يلحظها العقل ، ولم يعرف بوجودها جيدا . . كأن تأتى لرجل عاش فى أرض سهلة لم ير جبلا فى حياته ، ثم تقول له كلمة جبل . . إنه لا يستطيع أن يتصور ما معنى جبل ، ولا يفهم شيئا . . ذلك أنه لم يعقل هذا الشيء الذى تتحدث عنه أو تقوله له . . ومن هنا فهو لا يفهمه ولا يعرفه . . لأنه لم يدخل إلى عقله أولا . . إذا قلت لإنسان مثلا ، أن ذلك تم بالعقل الالكترونى ، فإنه لا يستطيع أن يفهم شيئا . . مادام لا يعرف ماذا يفعل العقل الالكترونى . . ولكنك إذا قلت كلمة الله ، فإن العقول كلها تفهمها ، على أنها تلك القوة القادرة ، القاهرة . . التى خلقت الدنيا كلها ، ولكننا لم نر الله ، فكيف نفهم هذه الكلمة . . لو أن الله غير موجود فينا بالفطرة ، وغير موجود فى عقولنا ونفوسنا . . لما فهمناها أبدا ، ولما أخذت هذا المعنى العالمى الذى ينسجم مع النفس البشرية . . ان يقيننا بوجود الله هو الذى يجعلنا نفهم هذه الكلمة . . ووجود الله فينا بالفطرة هو الذى يجعلها تدخل إلى عقولنا لأن أى كلمة لا يمكن أن تكون مفهومة إلا إذا كان معناها ومدلولها موجودين فى العقل البشرى أولا . . بل ان وجود هذا المعنى يجب أن يسبق الكلمة نفسها . . فأنت لا تستطيع أن تحدث أحدا بكلمة جبل . ويفهم ما تقول . . أو بكلمة « قوى » ويفهم ما تقول . . إلا إذا كان المعنى موجودا أولا فى عقله . . قبل أن تنطق بالكلمة فالمعنى يوجد أولا . . ثم بعد ذلك توجد الكلمات الدالة عليه . . وإذا راجعنا قواميس اللغة فى جميع أنحاء العالم . . نجد أن الكلمات الموجودة فيها هى لأشياء موجودة أصلا . . وأن هذه القواميس تراجع كل عام لاضافة أسماء لأشياء وجدت . . ولم تكن موجودة فى العام الذى قبله . . وذلك بمعنى أن الشيء يوجد أولا ثم بعد ذلك يعطى تسمية . . بل ان هذا فى حياتنا اليومية ملحوظ فى كل شيء . . فهناك أسماء كثيرة فى اللغة تضاف إلى القواميس كل عام . . وهناك علماء متخصصون يجتمعون فى مجمع اللغة . . ليضعوا الأسماء لمعان أو لأشياء وجدت ولم تكن موجودة . . إذن فالأصل أن يوجد الشيء أولا . . ثم يضع الإنسان له الاسم . . ووجود اسم الله سبحانه وتعالى فى جميع لغات الأرض معناه أنه موجود فى جميع أديان البشر . . وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل أن توجد البشرية نفسها . . وقبل أن ينطق لسان بأى لغة . .

ولفظ الله معناه واحد فى كل العقول . . وفى كل اللغات . . بل ان تقبل

الشك .. والوجود

العقل البشرى لاسم الله سبحانه وتعالى معناه أن هذا العقل يعرف الله بالفطرة .. وان كان الله فوق قدرة العقول .. ومن هنا نعود مرة أخرى إلى الرسالات السماوية .. إلى الآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ ﴾

هذه الآية الكريمة التى أخبرنا بها الله تدلنا كيف أن الله يوجد فينا بالفطرة رغم أنه فوق قدرة العقل .. فقد عرفنا وجود الله يقينا .. وهذه المعرفة موجودة فى داخلنا حتى وإن لم يدلنا عليها أحد .. ومن هنا فإذا ذكر اسم الله فإننا لا نحس أن إنسانا ينطق لفظا غريبا لا معنى له .. ولكننا نحس أنه ينطق لفظا نعرفه جيدا .. ونحس به فى داخلنا .. ونحس بقدرته وقوته .. وبأن الحياة لا يمكن أن تنسجم إلا بوجوده .. وهناك أميون لا يقرأون ولا يكتبون .. وربما لم يقرأوا كلمة واحدة فى حياتهم .. فإذا أخبرتهم عن أى شىء فى هذه الدنيا .. سألوك : ما معنى هذا الذى تتكلم عنه .. نحن لا نفهمك .. إلا كلمة الله سبحانه وتعالى .. فإنك إذا قرأتها عرفها الجاهل والمتعلم .. والصبى والرجل .. والكهل .. وكل إنسان يجلس أمامك .. ولن تجد أحدا يقف ليسألك : ماذا تعنى بكلمة الله .. اننا لا نفهم هذه الكلمة .. لماذا ؟ لأن الله يوجد فينا بالفطرة ومن هنا فإن الطفل يعبده .. والإنسان البسيط الذى لم يقرأ كلمة فى حياته يعبده .. والإنسان المتعلم يعبده .. والإنسان الذى تبحر فى العلم ووصل إلى أعلى مراتبه يعبده .. وكل هذه العقول على اختلاف مستوياتها قد تعجز عن فهم مشترك لقضية من القضايا .. ولكنها جميعا لا يوجد بينهاتصادم فى عبادة الله ..

وأنت تدخل إلى المسجد . . تجد عباد الله جالسين معا . . عقول كلها مختلفة فى السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعى والطباع والعادات وكل شىء . . ولكنها كلها منسجمة فى عبادة الله تركع له معا . . وتسجد له معا . . وتقرأ له القرآن معا . . وتسبح له معا . . كل هذه العقول لا يمكن أن تجتمع وتنسجم هكذا إلا إذا كان الله موجودا فينا بالفطرة . . وإلا مصداقا للآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾

(الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

على أن الذين يحاولون انكار وجود الله ، فمحاولة الانكار هذه وحدها اثبات . . لأنك لست محتاجا إلى أن تنكر ما ليس له وجود . . فالأرض مثلا بعض الناس يقول انها كروية . . وبعض الناس يقول انها مبسوطة . . ويحدث جدل . . لو لم ير الناس أمامهم الأرض مبسوطة ولو أن العلم لم يثبت لهم أنها كروية لما حدث هذا الجدل ، فالجدل هنا حدث لأن هناك واقعا علميا يخالف واقعا تراه العين . . إذن فقبل النفى والجدل . . هناك وجود . . وإذا أردنا أن ننفى نظرية علمية إذن فهذه النظرية يجب أن تكون أولا موجودة وإلا فكيف ننفيها . . الخلاف هنا على النفى والوجود يجب أن يكون على واقع . . وإلا انتفى الجدل نفسه . .

إذن محاولة انكار وجود الله . . قد سبقتها حقيقة أن الله موجود فعلا . . وإلا فلماذا يحاول أى كافر أن ينكره . . محاولة النفى والجدل لا يمكن أن تتم إلا لشىء موجود . . وإذا لم يكن هناك شىء أصلا . . ففيم أجادل . . ومن الذى أحاول أن أنفى وجوده . .

الشك فى وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لهذا الوجود . . والذين يحاولون وضع الأدلة للتشكيك فى وجود الله . . هم فى الحقيقة أثبتوا هذا الوجود دون حاجة إلى دليل . . فالدليل على وجود الله هو طلب الدليل على هذا الوجود . . واجهاد العقل فيه . . معناه أن الله موجود فينا بالفطرة . .

إذا انتهينا من هذه الحقيقة ، وأن الله موجود فينا بالفطرة . . يحس به كل قلب بشرى . . وكل نفس . . حتى أولئك الذين يكفرون به يخشونه . . ويخافون يوم الحساب . . وهم فى محاولتهم الانكار . . إنما يحاولون أن ينكروا العذاب الذى ينتظرهم ويقنعوا أنفسهم ، ولو كذبا ، بأن هذا العذاب لن يحدث . . ولن يتم . . ولن يكون . . ومن هنا تأتى محاولة الانكار خوفا من لقاء الله ورعبا مما توعدهم به . . ومحاولة أن يطمئنوا أنفسهم المرتعدة من الداخل والتى تحس بيوم الحساب . . محاولة طمأنتها خداعا . . بأنه ليس هناك حساب . . محاولة جمع الأدلة ولو باطلا على ذلك . . وتظل النفس الكافرة فى شقاء فى الدنيا حتى ينتهى أجلها . . فهى لا تعرف الطمأنينة أبدا . . وهى تخشى الغد دائما مهما أعطاها اليوم من أمان واطمئنان .

على أننا يجب أن نتحدث عن منهج الله . . ولماذا يحيد عنه بعض الناس . . هل لأن منهج الله لا يحمل العدل والسعادة للناس . . كل الناس . . لماذا تحاول النفس البشرية أن تختار لها طريقا آخر . . مرة تسميه الفكر المعاصر . . ومرة النظريات الحديثة . . لماذا تهرب من طريق الله ؟

إن الله سبحانه وتعالى قد وضع قيودا على هوى النفس البشرية . . وهذه القيود لم يضعها لصالح فئة معينة . . وإنما وضعها لصالح البشرية جمعاء . . ولكن الطمع البشرى بلا حدود . . والإنسان يريد أن ينطلق بغرائزه . . رغم أنه يعرف أن ذلك يأتى بضرر بالغ على المجتمع . . غريزة حب الامتلاك مثلا . . الإنسان يريد أن يملك كل شيء . . القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . . وينظر إلى ما يملكه بعض الناس ويتساءل لماذا ؟! هل سيستطيعون انفاق كل هذا ولو عاشوا ضعف أعمارهم . . والجواب يكون فى كثير من الأحيان « مستحيل » . .

ويأتى السؤال الثانى : هل سيأخذون شيئا من هذا معهم بعد الموت . . بعد الأجل . . والجواب أيضا « مستحيل » . . إذا كان ذلك مستحيلا . . فلماذا كل هذه الحرب على الامتلاك ؟ والجواب أن النفس البشرية ، رغم يقينها أنها ستموت . تظن أن عمرها سيمتد سنوات وسنوات . . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم أر يقينا أشبه بالشك . . من يقين الموت) .

ولكن الله سبحانه وتعالى حرص على أن يهذب غريزة التملك فمنع الاعتداء على ما يملكه الغير . . لماذا ؟ ليحمى كل فرد من المجتمع وليلتزم المجتمع كله

بأن يحترم حقوق بعضه .. نهى عن المال الحرام .. وعن أكل حقوق الضعيف ليحميه من بطش القوى .. وعن أكل أموال اليتامى الذين لا حول لهم ولا قوة .. وسرقة أموال الناس .. لماذا ؟ ليحمى القوى إذا ضعف .. وليحمى القوى وهو قوى .

قد تبدو العبارة متناقضة ولكنها صحيحة .. إن الله الذى حرم علىّ ما يملك غيرى حرم على غيرى وهو المجتمع كله من أن يأكل حقى .. وأعطى لكل ذى حق حقه .. حرم علىّ أن آخذ حقوق غيرى وأنا قوى وهو الضعيف ليحميه منى .. ولكنه فى نفس الوقت حمانى من المجتمع الذى مهما كنت قويا كفرد .. فأنا ضعيف أمامه .. وإذا كان الله قد أباحْ لى أن آكل مال الضعيف فقد أباح للمجتمع كله أن يأخذ مالى .. بلا حق .. وبلا حساب ..

وهنا نرى عدل الله .. إنه يحمى الضعيف من القوى .. وفى نفس الوقت يحمى القوى من المجتمع .. أى أن التشريع هنا فى صالح المجتمع كله .. غنيه وفقيره .. ضعيفه وقويه .. ثم وضع الرحمة والتعاطف والتآخى بأن يعطى الغنى من ماله للفقير لينعم المجتمع بالسلام .. وليخرج الحقد والبغضاء والكره من النفوس .. وتحل مكانها الرحمة والتآلف .. والتآخى .. هذا هو تشريع من تشريعات الله سبحانه وتعالى .. قد يقف ظاهرا ضد أطماع بعض النفوس البشرية التى تريد أن تملك بلا حدود وتطمع فى أن تأخذ حق غيرها بلا وازع .. وأن تستحوذ على كل شيء .. ولكنه وهو يضع القيد يحمى هؤلاء الناس من أنفسهم .. من أطماعها التى تؤدى بها الى الهلاك فى الدنيا والآخرة .. ويحمى المجتمع كله .. ليجعله مجتمعا سعيدا متآخيا .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الغريزة الجنسية .. فإننا نجد أن الله سبحانه وتعالى يحمى النفس البشرية مما يفسدها .. ويحميها من المجتمع أيضا ..

ويحكى أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : انى أعاهدك على الإسلام .. ولكنى رجل أحب النساء .. ولا أستطيع أن أتخلى عن هذه العادة .. فهل تأذن لى .. ولم يقم رسول الله ليضربه .. أو يعنفه .. أو يدفع به ليرجموه .. لكنه وهو المعلم أراد أن يبين له الحكمة من التشريع هنا .. أراد أن يبين له .. كيف ذلك .. بطريقة يفهمها الرجل ويحسها .. فقال له صلى الله عليه وسلم بهدوء : أتحب أن يفعل ذلك بأمك ؟ فظهر الغضب على وجه الرجل وقال لا .. قال رسول الله : أتحب أن يفعل ذلك بأختك .. فازداد

غضب الرجل فقال : لا .. فقال رسول الله : أتحب أن يفعل ذلك بزوجتك .. فرد الرجل بسرعة : لا .. لا .. فقال رسول الله : وكلنا كذلك يا أخا العرب ..

وهكذا يبين له أن تشريع الله إنما وضع ليحمى أمه وأخته وزوجته مما لا يقبله أى إنسان .. ولو تذكر أى فرد هذا الحوار وهو يهم بمعصية الزنا ، إذا تذكر أنه يكره أن يفعل ذلك بأمه أو أخته أو بزوجته لامتنع فورا عما ينوى أن يفعل .. إذن فالتشريع هنا حين يسمو بالغرائز ويضع القيود عليها إنما يضعها لحماية الفرد نفسه .. لحماية أمه وأخته وزوجته من أى اعتداء .. للدفاع عن عرضه هو .. والإنسان يسعد بذلك .. ولكنه فى نفس الوقت الذى يريد فيه تشريعا يحمى أهله من أى اعتداء من المجتمع .. يقوم هو بالاعتداء على أهل غيره .

وهنا تظهر عدالة السماء لتقول لا .. كلكم سواء أمام الله وإذا كان الله بتشريعه .. قد حمى أهلك وعرضك .. فإنه يحمى أهل وعرض الآخرين .. فإذا انتهكته عاقبك .. وإذا خالفته عذبك .. لماذا ..؟ لأنك تريد الافساد فى الأرض .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد نهانا عن تناول سير الناس بالباطل والتجسس على أخبارهم .. فقد نهانا عن ذلك ليحفظ سيرنا وأسرارنا .. فأنا لى عورات لا أحب أن يطلع عليها أحد .. وأنت لك عورات لا تحب أن يطلع عليها أحد .. وكلنا يسيئه أن يطلع على عوراته أحد .. أو يتناوله أحد بالسوء وهو غير موجود .. لا يستطيع أن يدافع عن نفسه .

ولكن بعض الناس يريد وضعا متميزا .. يحل لنفسه أن يسرق هو .. ولا يحل لغيره أن يسرقه .. ويحل لنفسه أن يعتدى على أعراض الناس .. ولا يرضى ولا يقبل أن يعتدى أحد على عرضه .. ويريد أن يتجسس ويكشف عورات غيره ويتناوله بالسوء .. فإذا تجسس أحد على عوراته هو .. أو تحدث عنه بالسوء .. ثار وهاج وانفعل .. والله يقول لا .. كلكم أمامى سواء .. عبيدى .. أنا خلقتكم وأعاملكم بلا تمييز .. لا أحل لأحد ما أحرمه على الآخر مهما كان هذا ذا قوة وسلطان .. و الثانى لا حول له ولا قوة .. ومن هنا فإننى عندما أحرم .. أحرم عليكم جميعا .. وعندما أحل .. أحل لكم جميعا .. قويكم وضعيفكم .. فقيركم وغنيكم .. وكل من يحسب أن ماله .. أو جاهه .. أو سلطانه سيجعله مميزا عندى فهو واهم ..

ذلك هو العدل الالهى .. وهذا هو منهج الله .. **لا يفرق بين أحد** .. ولا يحل لهذا .. ويحرم على ذلك .. فهو فى تشريعه إنما يستهدف حماية المجتمع كله غنيه وفقيره .. قويه وضعيفه .

إذن فما الذى يضعه الله .. انه يضع المجتمع الصحيح .. يضع القواعد للمجتمع القوى ويهذب النفس البشرية ويبنيها من الداخل ويجعلها صلبة قوية عادلة .. تحافظ على حقوق غيرها .. كما تحافظ على حقوق نفسها .. إنه يلغى قانون الغابة السائد بين الحيوان .. ويرقى بالإنسان إلى درجة الإنسانية .. يسمو به ويميزه عن باقى مخلوقاته ..

الله سبحانه وتعالى يضع لنا فى منهجه أساس بناء المجتمع الذى يسود الأرض .. لماذا ؟ لأنه هو الوحيد القادر على ذلك .. وهو أعلى من البشر جميعا .. وأعلم منهم .. وهو الذى خلق هذا الكون .. وسخر كل شيء فيه لخدمة الانسان .. سخر قوى أكثر كثيرا من الإنسان فالشمس والقمر والأرض والنجوم سخرها كلها لخدمة الإنسان .. وجعلها خاضعة له .. تعطيه دون أن يكون لها اختيار .. ودون أن تملك الارادة فى أن تمنح وتمنع ..

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق هذه القوى جميعا وسخرها لخدمة الإنسان .. وهى قوى يعجز الإنسان أن يخلق مثلها .. فلا الإنسان يستطيع أن يخلق أرضا .. أو سماء .. أو شمسا .. أو قمرا .. أو غلافا جويا أو جاذبية أرضية .. إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق كل هذه القوى الجبارة وسخرها لخدمة الإنسان .. فهو القادر وحده على أن يرسم لنا الطريق الصحيح للحياة السعيدة على هذه الأرض .. وليس للإنسان مهما بلغ أن يتطاول ويقول أنا أقدر من الله سبحانه وتعالى فى رسم الطريق الصحيح للحياة على الأرض .. لأن كلا منا مهما بلغ ، عاجز أمام قدرة الله .. ولأن كلا منا ، مهما حاول ، يريد أن يعدل له هوى فى نفسه .. والله لا هوى له .. ولذلك فهو يحكم بالعدل ويضع الصراط المستقيم .. ومادام الله قد قال .. فهو أعلم منا جميعا .. ولذلك فإننا يجب أن نتبع منهج الله ودون أن نقارنه بمنهج بشرى مهما كان .

على أننا حين نسأل بعض الناس من الذى خلق السموات والأرض .. يقولون الله .. ثم تسألهم إذا كانت هذه هى الحقيقة فلماذا لا تتبعون منهج الله .؟ نجد بعضهم لا يجيب والبعض الآخر يحاول أن يضع منهجا بشريا مقابل منهج الله ثم يناقشك فيه .. ونحن نقول لهؤلاء جميعا انكم تناقضون

أنفسكم . . إذا كان الله هو خالق الحياة وخالق الكون . . وإذ كان الله قد وضع منهجا للحياة التى خلقها كما وضع قوانين للكون . . أتترك هذا العطاء وتذهب إلى ما يقوله بشر عن هوى . . أو عن أى شىء آخر . . كيف أترك من يعلم . . وأذهب إلى من لا يعلم . . وكيف أجادل فيما وضعه الخالق بما وضعه مخلوق . .

بل إن الأساس فى اتباع منهج الله هو الايمان . . ولذلك تجد الله سبحانه وتعالى حين يخاطب عباده فى منهجه . . يقول دائما « يا أيها الذين آمنوا » ويكررها فى آيات كثيرة من القرآن . . لماذا ؟ لأن الأساس فى اتباع منهج الله هو الإيمان بالله والرسل والملائكة والغيب . ذلك هو الأساس . . أما غير ذلك فهو باطل . . ولو أتيت بما طلبه الله منك ولكن بلا إيمان فعملك باطل .

ولنوضح هذه النقطة قليلا . . الله أمرنا بالتصدق على الفقراء . . من فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وإيمانا منه بالله ومنهجه فله الثواب . . ولكن هب أن إنسانا يتصدق على الناس ليقال عنه انه جواد أو كريم . . يأتى أمام القوم ويجمع الفقراء ويعطيهم المال ويتباهى بذلك ويتحدث عنه كثيرا ليقول الناس عنه انه رجل كريم . . حتى إذا جاءه فقير بينه وبين نفسه ، طرده ولم يتصدق عليه . . انه يريد السمعة والشهرة ولا يريد رضا الله . . هذا الإنسان لا يثاب رغم أنه أتى عملا من الأعمال التى حث عليها الله سبحانه وتعالى . . وطلب منا القيام بها . . ولكنه أتاها بلا إيمان . . أتاها وقلبه غير مؤمن بالله لا ينطبق عليه قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » . . كذلك رجل يصلى أمام الناس فإذا كان وحده لا يصلى . . هل يثاب على صلاته . . أبدا . . مع أنه يفعل ما أمره الله به ولكن بلا إيمان .

والله سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشركاء . . ولذلك إذا كان العمل لوجهه وإرضاء له سبحانه وتعالى فإنه يتقبله . . أما إذا كان لارضاء البشر فإنه غنى عنه ولا يتقبله . . حتى ولو كان فيه جزء لارضاء البشر أو لجاه الدنيا . . فإنه لا يتقبله فالله غنى عن العالمين . . والحديث الشريف (إنما الأعمال بالنيات . . وإنما لكل امرىء ما نوى) . . هو أكبر توضيح لذلك فالنية محلها القلب ، والله مطلع على القلوب . . يعرف ما تخفيه الأنفس . . ويعلم تماما . . ولكن بعض الناس فى هذه الدنيا يعتقد أنه يستطيع أن يخدع الله . . وهذه هى كارثة الانسانية كلها .

ولقد أجهد الفلاسفة أنفسهم على مر السنين فى الوصول إلى وجود الله .. محاولين استخدام العقل بدلا من الرسالات السماوية التى أنزلها الله سبحانه وتعالى .. ومن هنا فإنهم أرادوا أن يستخدموا العقل فيما لم يخلق له .. ذلك أن العقل له وظيفة .. أو وظائف فى الحياة .. ليس من بينها أن يصل إلى وجود الله بدليل فوق طاقته .. أو غير مستخدم الوسائل .. أو الرسالات التى أنزلها الله لعباده .. فهذه الرسالات قد وضع فيها الله سبحانه وتعالى الأدلة فيما هو فى قدرة العقل البشرى .. منذ يوم خلقه .. إلى يوم القيامة .. ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا .. بأن يقدموا للعقل البشرى ما هو فوق طاقته .. وهذا مستحيل ..

ولقد قال لنا الله فى رسالاته هذا هو الطريق إلى عبادتى .. وشرحه لنا .. وبين لنا الثواب والعقاب .. وهذا دليل قوى على وجود الخالق .. ذلك أن الذين يعبدون الشمس والأصنام .. أو أى شىء غير الله .. فإن هذه الأشياء لا ترسل لهم رسالات تقول لهم .. أو تبين لهم .. أو تعلمهم طرق العبادة .. ولذلك لم نسمع عن رسول أرسلته الشمس ليهدى الناس .. مع أن الناس عبدوا الشمس .. ولم نسمع عن رسول أرسله صنم ليهدى الناس .. مع أن الناس عبدت الأصنام .. والأحجار .. والحيوانات .. وكل شىء فى هذه الدنيا عبد بطرق ابتدعها الناس أنفسهم حسب أهوائهم ..

وإذا حكمنا المنطق وحده .. والعقل وحده .. فإن الاثنين معا لا يقولان لنا أن ندخل فى أشياء هى فوق قدرة الاثنين معا .. وبالرغم من ذلك .. فإن الإنسان رغم عجزه يحاول أن يخترق هذه الحجب .. بطريق الجهل .. وليس العدل .. ومن هنا فإننا لا نجد أى مدرسة فلسفية حاولت أن تخترق الحجب إلى ما وراء المادة .. أو إلى العالم غير المادى .. قد وصلت إلى نفس النتائج التى وصلت إليها مدرسة أخرى .. بل إن كل مدرسة تصل إلى نتيجة قد تكون مخالفة .. أو مناقضة للمدرسة الأخرى .. ولم تصل أى مدرسة من هذه المدارس إلى نتيجة تقبلها كل العقول ..

على أن الانسان فى صلته بالعالم الخارجى يتمتع بما نسميه بالحاسة .. أو الحواس .. فأنت ككائن بشرى حين تتصل بالعالم الذى يحيط بك .. فإنك تتصل به عن طريق حواس حددت بخمس هى : أن يسمع الإنسان ويرى ويشم ويلمس ويتذوق .. هذه الحواس نفهم بواسطتها العالم الخارجى .. ونميز

بواسطتها هذا العالم .. بل ونعطيه الصفات التى نطلقها عليه .. فصفات الألوان مثلا نميزها بحاسة البصر .. ونوع الطعام مثلا نعطيه لفظ الحلو .. ولفظ المر .. ولفظ الجيد .. ولفظ الردىء .. بحاسة الذوق إلى آخر هذا الكلام .. إذن فنحن نتصل بالعالم الموجود خارجنا عن طريق هذه الحواس .. ولكن ماذا عن عالم ما هو داخل النفس البشرية .. وكيف يمكن أن يتم الاتصال بين الإنسان .. وما هو موجود فى داخله .. هل يتم هذا الاتصال عن طريق الحواس .. أو عن طريق أشياء أخرى يطلق عليها بعض الناس البديهيات .. وبعض الناس لفظ الهام خاص .. وبعض الناس ألفاظا أخرى .. ولكن المؤكد أن هذا الاحساس الذى يتم بالنسبة لما فى داخل النفس البشرية لا يتم عن طريق الحواس الخمس التى نتصل عن طريقها بالعالم الخارجى .. وإنما يتم عن طريق أشياء أخرى .. يطلق عليها كما قلت الهام أو بديهيات .. أو احساس داخلى إلى آخر هذا ..

ولنشرح الموضوع بشىء من التفصيل .. نبدأ أولا بالأشياء التى يصل إليها الإنسان عن طريق حواسه التى تصله بالعالم الخارجى . فهو يرى ألوانا مختلفة .. ويسمع أصواتا مختلفة .. ويلمس أشياء مختلفة .. ويتذوق أطعمة مختلفة .. ويشم روائح مختلفة .. هذا هو اتصال الإنسان بالعالم الخارجى .. أما اتصاله بما فى داخله فيأتى مثلا عن طريق شعوره بالجوع .. إننا لا نرى الجوع .. ولا نلمسه .. ولا نشمه .. ولا نتذوقه .. ولكننا نشعر به .. وما ينطبق على الجوع .. ينطبق على الأشياء الأخرى .. مثل الحب والكره مثلا .. الإنسان يحب شخصا ما .. ويكره شخصا ما .. أو شيئا ما .. دون أن يكون لذلك سبب حسى معروف .

إذن فهناك أشياء فى داخلنا .. تسمح لنا بأن نشعر شعورا معينا .. هذا الشعور نحس به ونعرفه تماما .. ولكننا لا نرى بحواسنا .. إن الإنسان مهما قال فى شرح أسباب الحب والكراهية لا يستطيع أن يصل إلى الحاسة التى تسبب الحب .. أو التى تسبب الكراهية .. فهذه الحاسة لا تدخل ضمن الحواس الخمس .. التى يتصل الإنسان عن طريقها بالعالم الخارجى .. أو التى تحدد علاقة الإنسان بالعالم المادى .. ومن هنا فإن العلماء حريصون .. حينما يتحدثون عن الحواس ، على أن يقولوا أن هذه الحواس هى التى توصل الإنسان إلى العالم الخارجى .. وأن الإنسان له ملكات وغرائز وشعور الهام .. وأشياء

أخرى فى داخله توصله إلى داخل النفس البشرية .. وتؤثر فى هذه النفس ..

والذى لا يخضع للمنطق ، نحاول أن ننكر أن فى داخل الإنسان أشياء كثيرة غير الحواس التى توصله إلى العالم الخارجى .. وأن الإنسان يستطيع أن يتصل بالعالم .. بينما ما بداخله يطرق بلا اتصال أو احساس معين .. الحقيقة ان الالهام أو الشعور والاحساس بما فى داخل النفس البشرية يوجد قبل احساس هذه النفس بما حولها من العالم .. تلك سنة الخلق .. فالطفل الصغير مثلا يحس بالجوع والعطش .. ويعبر عنهما بالبكاء قبل أن يستطيع أن يستخدم حواسه فى الاتصال بالعالم الخارجى .. وهو يحس بالحنان والدفء .. والحب والكره .. والقسوة .. والرحمة .. كل هذه الأشياء توجد فى داخل نفسه مع دقات الحياة الأولى .. بينما الحواس تنتظر أسابيع أو شهورا قبل أن تستطيع أن تؤدى مهمتها بشكل يمكن أن يعبر عنه الطفل ..

وإذا درسنا هذه الحواس الداخلية .. نجد أن أقواها هو احساس الإنسان بوجود الله .. هذا الاحساس الذى قد يفتقر إلى شىء من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته .. والكون .. ووجوده .. وكل شىء من هذا النوع .. ولكن هذا الاحساس يؤكد وجود قوة داخل الإنسان تدفعه إلى أن يشعر ويحس بوجود الخالق سبحانه وتعالى ..

.. فاسم الله مثلا لا تدركه الحواس الخمس .. لأنه أكبر من قدرتها .. ولكن تدركه حاسة داخل الإنسان .. حاسة غير مرئية .. ومن هنا فإن كلمة الله التى هى فوق قدرة الحواس الخمس .. نجد أن الأذن تفهمها عندما تسمعها .. ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئا لا يوجد أصلا داخل النفس البشرية .. بحيث يكون التصور هنا ليس غريبا تماما .. على هذه النفس .. بل هو معروف لها بشكل ما .. قد لا نفهمه نحن .. ولا نستطيع أن نحلله .. ولكنه معروف .. فعندما يذكر لنا أحد اسم الله .. فإن الذى يقفز إلى عقولنا هو وجود قوة خارقة .. هى التى خلقت هذا العالم .. وأن هذه القوة خارج نطاق العقل .. بل وخارج نطاق الحواس ..

إذن .. كيف ندرك وجود هذه القوة .. وكيف يكون اسمها مألوفا عندنا .. وهى خارج نطاق الحواس .. وخارج نطاق العقل . هنا يأتى ما فى داخل النفس .. وهو الالهام .. أو الشعور .. ليقول لنا أن هذه القوة ، رغم أنها

فوق مستوى العقل والحواس .. موجودة داخل النفس .. والنفس تفهم وتحس بوجودها .

وفى العصر القديم بدأ الفلاسفة .. خصوصا فلاسفة اليونان يبحثون عما وراء المادة .. عما وراء هذا العالم المادى .. عن الخلق . وعن القوة التى أوجدت هذا العالم .. إلى آخر فلسفة اليونان القديمة عما وراء المادة .. من الذى قال لهم ان هناك شيئا وراء العالم المادى .. يجب أن يدرس .. كيف عرفوا أن هناك شيئا خلاف المادة .. مع أن الحواس الخمس لا تقول لنا شيئا إلا عن المادة .. ونحن هنا لا نناقش الفلسفة اليونانية .. وسواء نجحت هذه الفلسفة أو غيرها .. أو فشلت .. موضوع لا يهمنا .. وإنما الأمر الذى يهمنا أنهم كانوا مدفوعين لينظروا إلى ما وراء الطبيعة .. وأنه كانت لديهم أشياء داخل أنفسهم .. ليست أشياء حواسية .. أى لا تخضع للحواس ليفعلوا ذلك ..

بل إن الإنسان منذ فجر التاريخ .. منذ بداية خلقه .. وهو يبحث عما وراء المادة .. يبحث عنه بطرقه المختلفة .. وهو أحيانا يتخذه سبيلا آخر لاظهار خضوعه أو عبوديته لهذه القوة التى هى وراء المادة .. ولكن المهم فى هذا كله .. أن هناك شعورا داخليا فى النفس البشرية .. يقول لها ان هناك شيئا وراء الطبيعة .. ان هناك قوة ما وراء هذا العالم .. وأن هذه القوة .. هى قوة عظيمة وخارقة .. هناك شعور داخلى فى كل نفس بشرية بوجود الله .. تلك القوة التى هى وراء هذا الكون .. هناك شىء داخل النفس البشرية يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادى الذى يرونه لا يمكن ألا أن تكون وراءه قوة خارقة قادرة منظمة قوية ..

ولكن العالم المادى نفسه الذى نعيش فيه .. لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور .. لا يمكن أن يقول لنا إذا استخدمنا حواسنا فقط أن هناك قوة قادرة قاهرة خلف كل هذا .. إذن لابد أن هناك قوة أخرى خلاف هذا العالم المادى هى التى وضعت فينا هذا التصور ..

وعلمتنا أن هناك شيئا خلاف المادة يجب أن يتم البحث عنه .. ومن هنا بدأ البحث والفكر والاتجاه نحو هذه القوة .. ولو لم يكن هناك شعور فى داخلنا .. وإحساس قوى بوجود هذه القوة لما بحثنا .. ولما دخل كل هذا البحث من تاريخ البشرية ..

على أن هناك ملاحظة أخرى أحب أن أسجلها .. هى أن الإنسان حين يصل إلى مرحلة التفكير فى وجود الله .. أو المرحلة التى يعقل فيها أن هناك قوة خارقة وراء هذا الكون .. لابد أن تكون قد مرت فترة من عمره .. فالإنسان عادة لا يبدأ فى التفكير فى مثل هذه الأمور .. أو التحدث عنها بعمق دون أن يكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين على الأقل .. ليكون لديه نضج العقل الكافى لمناقشة أمر عميق كهذا .. والسؤال الذى يجب أن يطرح هنا .. هو بأى منطق عبد هؤلاء الناس الله .. قبل الوصول إلى هذه السن .. وكيف تفهموا كل هذه الفلسفة التى تحتاج إلى عقل ناضج .. وإلى علم ودراسة وتأمل .. حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى أن هناك شيئا وراء المادة .. ولكننا نجد العقول البسيطة التى لم تقرأ كتابا واحدا .. ولم تدرس ما هى المادة .. تعرف أن الله موجود .. وتعبده بفهم .. ونجد أولئك الذين لم يناقشوا هذا الموضوع على الاطلاق .. يتقبلون وجود الله . ويقومون بعبادته .. دون أن يحسوا أن هناك تناقضا بين الكون الذى يعيشون فيه .. وبين وجود الخالق سبحانه وتعالى .. بل ان أكثرهم يحس بانسجام فطرى غريب بأن الله سبحانه وتعالى .. ووجود الكون شيئان لابد منهما .. ووجودهما حقيقة داخل النفس ..

ولكن إذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود الله .. فما الذى أوجد هذا القلق فى العالم .. وما الذى أوجد المذاهب المتضاربة .. ولماذا يحاول بعض الناس أن يثبت وجود الله .. وبعض الناس أن ينكر وجود الله .. ما سبب هذا التضارب العجيب الذى نراه .. مادامت النفس البشرية يوجد فيها بالفطرة ما يؤكد وجود الله ؟

الحقيقة أن الذى صنع هذا هو هوى النفس .. وكل من حاول أن يخوض فى هذا الموضوع .. وضع الخيال مكان المنطق .. ووضع التصور مكان التفكير .. ومن هنا فإن العقل البشرى فى محاولته أن يخوض فيما هو أكبر من قدراته .. لم يستطع أن يقدم ما يريده .. فانطلق إلى الخيال ..

وأريد هنا أن أضرب مثلا يوضح ذلك .. إذا أقفلنا باب هذه الحجرة التى نجلس فيها .. ثم طرق أحدهم الباب فكلنا يعرف أن هناك شخصا ما هو الذى طرق الباب .. هذه قدراتنا .. وهذه نقطة لا خلاف عليها .. فإذا بدأنا نسأل أنفسنا .. من الذى طرق الباب .. هل هو رجل أم امرأة .. قصير أم طويل .. أبيض أم أسود .. عربى أم أعجمى .. هنا يبدأ الخلاف .. لماذا ؟

لأننا لا نحكم المنطق والعقل .. ولكن نحكم الخيال ..

وهذا هو ما حدث بالنسبة لعدد من البشر .. لقد أرهقوا أنفسهم فى تخيل الله .. مع أن هذا التخيل خارج عن نطاق العقل البشرى .. ومستحيل .. ذلك لأننا لكى نتخيل شيئا ما .. فإن هذا الشىء يجب أن يشبه شيئا فى قدرات العقل .. فأنت حين تريد أن تشرح شكلا معينا لإنسان .. ولا يستطيع أن يفهمك .. تقول له : إنه شىء يشبه الكرة .. وحينئذ تكون قد نقلت هذا التصور من خارج قدرة العقل البشرى إلى داخلها .. فاستطاع الإنسان أن يتصور ذلك الشىء .. ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء .. إذن كل ما سيقوله الفلاسفة هو من باب التخيل الذى لا يمكن أن يدركه العقل .. ولا يخضع لمنطق .. ومن هنا فإننا لو قطعنا المنطق لما اختلفنا .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بنفسه عما يريدنا أن نعرفه عنه وعن عبادته .. ولكننا نريد أن نتجاوز ذلك .. إلى أشياء ليست فى قدرة العقول البشرية .. فنضيع .. ولو أننا تمسكنا بما قاله لنا الله .. لكان فى ذلك المنطق السليم .. إذن فإن ما يؤكد وجود الله .. أنه موجود فى قلوبنا بالفطرة .. وطريقة عبادة الله وطاعته .. وكل ما يريدنا أن نعرفه عنه موجود فى رسالاته التى أرسلها بواسطة أنبيائه المختارين .. فالمنطق يقول أننا نتبع هذه الرسالات .. والخيال يقول أننا نبحث عما فوق قدرات العقل .. ونتوه مع أن رسالات الله سبحانه وتعالى للبشر .. هى فى حقيقتها أكبر دليل على وجود الله ..

على أننى أريد أن أنبه إلى كلمة هامة قد وردت فى الآية الكريمة :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى سنريهم آياتنا فى الأرض واستخدم بدلا منها لفظ الآفاق .. ونحن نعلم أن القرآن ، وهو كلام الله سبحانه وتعالى ، غاية فى الدقة وفى اختيار اللفظ الذى يطابق المعنى تماما .

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أنه سيكشف لنا فى المستقبل آياته فى الآفاق التى لا نعرفها حتى الآن .. أى أن الله سبحانه وتعالى سيكشف لنا أكثر من آية ليست فى الأرض فقط .. بل فى الآفاق المحيطة بالأرض .. ولعل وصول الإنسان للقمر .. ومحاولة وصوله للمريخ .. وكل ما يحدث من محاولة

الكشف عن أسرار الكون فى الآفاق المحيطة بالأرض .. يأتى مصداقا لهذه الآية الكريمة .. ولكن بعض الناس يغتر بالعلم .. ناسيا أو متناسيا .. أن هذا العلم قد خرج إلى البشر بقدرة الله سبحانه وتعالى .

ولكن بعض الناس يحاول أن يفلسف العبادات بقدر طاقة العقل .. فيأتى المستشرقون مثلا يحاولون التشكيك فى القرآن الكريم فيقولون ان الله سبحانه وتعالى قال : « ولله المشرق والمغرب ... فأينما تولوا فثم وجه الله » ومع ذلك يأمرنا أن نتجه إلى القبلة فى صلاتنا وهى بيت الله الحرام وتكون الصلاة باطلة إذا لم نتجه إلى القبلة .

إذا كان الله سبحانه وتعالى فى كل مكان .. فى المشرق والمغرب .. وأينما وليت وجهك فثم وجه الله .. ألا يتعارض ذلك مع وجود مكان محدد يجب أن نتوجه إليه فى الصلاة إلى الله سبحانه وتعالى .

فالقضية هنا قضية إيمانية كبرى .. أساسها الاعتراف بالألوهية .. وبأن الله سبحانه وتعالى علمه فوق كل علم .. وأنه مادمت قد آمنت بالله .. وأسلمت بهذه القوى الكبرى .. فإن الله سبحانه وتعالى بحق الألوهية يختار لك الطريق الأحسن والأصوب .. وأنت تتبع هذا الطريق لأنه جاء من الله سبحانه وتعالى .. هذه هى قضية الإيمان والتسليم .. ذلك كما قلنا ، أن القدرة هنا ليست متساوية .. والعقل ليس متساويا .. وشتان بين قدرة الله سبحانه وتعالى وقدرة العقل البشرى .. والإيمان بالله أساسه التسليم بألوهيته .. ولهذا أتى الله سبحانه وتعالى بمسألة القبلة .

مكان القبلة لا يكلف المؤمن شيئا .. أى لا يضيف عليه أعباء جديدة أو مشقة .. فالتوجه إلى المشرق أو التوجه إلى المغرب .. أو التوجه إلى اليمين أو اليسار .. كل هذا لا يكلف المؤمن مشقة فى صلاته .. فهو لا يتحمل مشقة إذا توجه إلى المغرب بدلا من المشرق .. ونفس الجهد الذى سيبذله فى التوجه إلى أى جهة .. جهد متساو .

نأتى إلى الآية الكريمة التى ذكرها الله فى كتابه العزيز عن القبلة :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾

وأنا أريد هنا أن أنبه إلى شيء هام جدا وهو استخدام حرف (السين) .. وحرف السين لا يستخدم إلا فى شيء مستقبلي .. أى شيء سيحدث فى المستقبل ولا يمكن أن أقول سيفعل فلان كذا ويكون قد قام بالفعل .. بل لابد أن يكون لم يقم به ولكن سيحدث فى المستقبل .. أى أنه لم يتم .. ولكنه قادم ..

يأتى الله فى كتابه العزيز ويقول لنبيه الكريم « **سيقول السفهاء** » .. ومعنى أنهم سيقولون أنهم لم يقولوا بعد .. ولكنهم بعد تغيير القبلة سيقولون .. وهؤلاء الذين سيقولون هم أعداء الدين الذين يحاولون التشكيك فيه واذاعة الأباطيل عنه .. يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول « **سيقول السفهاء** » يعنى أن الله سبحانه وتعالى يصف هؤلاء الناس قبل أن يقولوا بأنهم سفهاء .. ثم يخبر نبيه والمؤمنين أن هؤلاء السفهاء سيقولون « **ما ولاهم عن قبلتهم** » ..

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى قد تحدى هؤلاء الكفار فى أمر اختيارى مستقبلى لم يحدث .. وقال إنهم سيقولونه .. وأن هؤلاء الذين سيرددون هذا القول هم سفهاء .. وهنا المعجزة .. فالأمر هنا اختيارى يمكن للكفار أن يفعلوه وألا يفعلوه .. ويزيد على ذلك أن الله سبحانه وتعالى وصفهم بلفظ منفر وهو السفهاء .. والقرآن كلام الله المتعبد به إلى يوم القيامة لا تغيير فيه ولا تبديل .. ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن هؤلاء الناس حينما سمعوا هذه الآية لم يسألوا عن تغيير القبلة وتجنبوا كل هذا .. إذن لكانوا قد طعنوا القرآن وطعنوا الدين فى قضية إيمانية كبرى ، ولكنهم جاءوا وقالوا أن محمدا عليه السلام قال فى كلام يوحى إليه من الله أنه سيأتى أناس لقبهم السفهاء .. ويسألون ما الذى ولى المسلمين عن قبلتهم .. ولكن أحدا لم يسأل ولم يثر هذا الموضوع لتعلموا جميعا أن هذا الكلام غير موحى به .. وأن هذا الدين من عند محمد .

ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل .. وهو الفاعل .. يجعل على يد خصوم القرآن وخصوم محمد عليه السلام ما يثبت صدق رسالته ويؤكد حقيقتها .. فيقول سبحانه وتعالى أنه سيأتى سفهاء من الناس ويسألون عن سبب تغيير القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام .. وأنا أنبئكم عنهم قبل أن يأتوا .. وأقول لكم ما سيرددونه قبل أن ينطقوا به .. ثم أعلن أن هؤلاء الناس هم سفهاء .. ويأتى فعلا هؤلاء الكفار ويقولون هذا الكلام ويرددون ما جاء به القرآن .. مثبتين صدق كلام الله .. بينما هم يحاولون أن يضلوا عن دينه .. وهكذا يأتى الله سبحانه وتعالى على يد خصوم القرآن بالدليل القاطع على صدق

هذا الكتاب الكريم ويجعل الذين يحاولون هدم هذا الدين . . مثبتين له بأمر الله وهم لا يملكون فى ذلك اختيارا . .

إذن فتغيير القبلة فيه معجزة إيمانية كبرى . . على أن الله سبحانه وتعالى . . قد تحدى خصوم هذا الدين فى أمر اختيارى . . أما قوله تعالى « **قل لله المشرق والمغرب** » فهذا اعجاز آخر على أن الإسلام سينتشر فى بقاع الدنيا كلها . . وأن المصلين فى كل مكان سيتجهون اتجاهات مختلفة . . فهذا سيتجه شرقا إلى القبلة . . وهذا سيتجه غربا . . وذاك شمالا . . وذاك جنوبا . . ولو أنهم جميعا يتجهون إلى مكان واحد وهو بيت الله الحرام . . إلا إن بعضهم سيتجه شرقا وبعضهم غربا وبعضهم شمال شرق . . وفى كل الاتجاهات هم يتجهون إلى بيت الله كما أن الصلاة إذا تعذر على الإنسان معرفة القبلة ، يمكن أن تكون صحيحة باتجاهه إلى المكان الذى يعتقد انه الاتجاه إلى بيت الله . . كذلك تكون الصلاة فى الطائرة . . أو الباخرة مع أن الطائرة أو الباخرة قد تغير اتجاهها أثناء الصلاة . . والمقصود هنا بالقبلة هو وحدة الهدف للمسلمين وهو التوجه إلى بيت الله الحرام . . والمقصود أكثر هو التسليم لله سبحانه وتعالى بالألوهية . . فأنت فى الحج مثلا تقبل حجرا . . وترجم حجرا . . ولا تخضع ذلك إلى منطق العقل المحدود . . ولكن تخضعه إلى أمر الله سبحانه وتعالى . . وأن له حكمته فى كل شىء قد أمر به . . فأنت فى هذه الحالة أحد ثلاثة . . إنسان مؤمن بالله تتبع ما يقوله الله بحق الألوهية ، وبحق عبوديتك له . . ولذلك نجد الخطاب فى الطاعات بالنسبة للمؤمنين فى القرآن الكريم فيما يتعلق بالطاعات فلا يقول يا أيها الناس لا تفعلوا كذا وافعلوا كذا ولكنه سبحانه وتعالى يقول « **يا أيها الذين آمنوا** » . . والخطاب هنا للمؤمن الذى يدرك يقينا أن قدرات الله وعلمه أكبر وأقوى من قدراته . . وهو يتبع ما قاله الله كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليشفى من مرضه . . ولا يناقشه فى هذا الدواء وذاك . . ولا فى النظام الذى يتبعه فى العلاج لأن المفروض أن علم الطبيب أكبر كثيرا من علم المريض . . وفرق ، ولا مقارنة بين علم الله وعلم البشر .

أما الكافر أو غير المؤمن فهذا يفعل ما يشاء فليس بعد الكفر ذنب . . تماما كما يمزق أوامر أكبر طبيب يعالجه ويتبع هواه . . فيشقى ولكن أحدا لا يلومه لأنه ليس بعد الكفر ذنب . . وإذا لم تؤمن فافعل ما شئت . .

أما الثالث فإنسان يعبد عقله وهو يريد أن يصل بعقله إلى منزلة متساوية مع علم الله سبحانه وتعالى . . وهذا يضل ويشقى ولا يصل إلى شيء لأن علم الله لا يحيط به أحد . .

هذه قضية إيمانية كبرى . . ولقد أراح الله العقول وجنبها كثيرا من الشقاء بأن أعطاها من علمه خلال رسالاته ما يبين لها طريق الحياة الطيبة على الأرض . . ولكن بعض هذه العقول يأبى أن تشمله رحمة الله . . فيتعب نفسه ويتعب عقله ولا يصل إلى شيء . .

ولقد جاء الله سبحانه وتعالى بقضية الإيمان الكبرى وهى التسليم لله فى العبادة والتكاليف . . ولم يأت بها فى أى مجال آخر . . أى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون الإيمان امتحانا للنفس البشرية وتسليما لله سبحانه وتعالى . . فقال الله جل جلاله إذا أردت أن تعبدنى وتؤمن بى وأنه لا إله إلا أنا فهذا هو الطريق . . افعل كذا ولا تفعل كذا . . وفى هذا اختبار لطاعتك وإيمانك . . ومدى استقرار هذا الإيمان فى القلب . . فإذا كنت آمنت بى ربا وخالقا فاعبدنى كما رسمت لك الطريق . . وأنا حين أعبد الله . . أعبده كما يريد هو أن يعبد . . ولا أضع من تشريعى أنا وعقلى طريقا أعلم به الله سبحانه وتعالى كيف يعبد . . فهو الله وأنا العبد . .

ولعل تغيير القبلة امتحان للإيمان . . فالاتجاه إلى المشرق أو المغرب لن يكلف المؤمن جهدا . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾

(الآية ١٤٣ سورة البقرة)

ولكن الذين يناقشون قضية الإيمان لا يقدمون الدليل أو الحجة على ما يقولون . . ويتجنبون مناقشة جوهر الرسالة أو الطريق الذى رسمه الله لعباده . . يأتى الواحد منهم ليقول . . إن هذا القرآن ليس منزلا من عند الله . .

وهذه قضية لا يستطيع أن يثبتها . . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخبره بهذا . . وهو لم يأت بعلمه الانكارى عن طريق يقيني . . بل أتى عن طريق هوى فى نفسه . . يريد أن يحققه بالهروب من شريعة الله إلى شريعة أخرى تعطيه فوق ما له من حقوق . . وتسلب الآخرين ما لهم من حقوق . . على أن الذين يجادلون ويحاولون أن يخدعوا الناس . . يأتون بأشياء كثيرة لا تمت للعلم بصلة . . نجد واحدا يقول أن أصل الإنسان قرد مثلا . . هذا شيء مبنى على الظن . . فالرجل الذى قال هذا الكلام لم يشهد قردا تحول إلى إنسان ولا يستطيع أن يحول قردا إلى إنسان . . ويجب حين نبدأ المناقشة معه . . نقول له تعال : هل شهدت قردا تحول إلى إنسان ؟ سيقول لا . . هل شهدت خلق الإنسان ؟ سيقول لا . . هل شهدت خلق القرد ؟ سيقول لا . . هل تستطيع أن تحول قردا إلى إنسان ؟ سيقول لا . . إذن على أى أساس بنيت نظريتك . . سيقول بالملاحظة والتخمين . .

حينئذ نناقشه بالملاحظة والتخمين . . نظرية الارتقاء التى يدعونها مبنية على التخمين والباطل . . وإلا فليقولوا لنا . . هل يستطيع إنسان أن يميز بين عصفور وعصفور آخر . . أو بين حصان وحصان آخر من نفس الجنس . . أو بين قرد وقرد . . الجواب طبعا لا . . ولكنك تستطيع أن تميز بين إنسان وملايين البشر رغم أننا مخلوقون بنفس الشكل . . فكل منا له عينان وأذنان وأنف وفم ويدان وقدمان إلى آخر ذلك . . أى أن الشكل واحد مثل الأمم الأخرى من الناحية الحيوانية . . ولكن كل إنسان له صورة تميزه عن ملايين البشر . . فأنت حين ترى إنسانا بين الملايين التى تسكن الكرة الأرضية تقول هذا على وهذا إسماعيل وهذه فاطمة . . وهذا أبى وهذه أختى إلى آخر ذلك . . من الذى ميز الإنسان عن أى إنسان آخر ؟ إذا كان الخلق قد تم بالارتقاء من الناحية الحيوانية . . من الذى وضع هذا التمييز . . الذى ميزه هو الله سبحانه وتعالى ليستقيم ذلك مع الحياة التى رسمها له . . وهو مميز فى الدنيا ليحاسب فى الآخرة . . فلو أن الإنسان غير مميز لكانت حياته على الأرض مستحيلة التنظيم . . وكان من غير الممكن أن يكون شهيدا على نفسه فى الآخرة . . ولقد وضع الله التمييز فى الإنسان باعجاز شديد حتى أن بصمة الأصبع لا تتشابه بين بلايين الخلق . . منذ بداية الدنيا إلى نهايتها . . والإنسان صورة لا تتكرر . ولعل أكبر دليل على ذلك صور وتماثيل الملوك التى تركوها فى الأرض وماتوا منذ مئات السنين . . فأنت

تستطيع أن تميز صورة رمسيس .. وكليوباترا ونابليون وغيرهم عن بقية الأحياء .. رغم أنهم ماتوا ورحلوا عن هذا العالم .. فالإنسان قائم بذاته لا يتكرر رغم تكرار الخلق .. ليكون الحساب فى الآخرة حيث يعرف الناس بصورهم .. هذا التمييز الدقيق المعجز لا يمكن أن يأتى من خلق نشأ بالارتقاء أو بالصدفة .. ولكنه اعجاز الله وقدرته .. وآياته التى وضعها فى الإنسان مصداقا لقوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

بل أن العقل البشرى الذى وضعه الله فى مساحة صغيرة جدا مكون من ألف مليون خلية عصبية .. هذه الألف مليون خلية تعمل وتترجم وتهاجم وتدافع .. وتعطى الاشارات ..

هناك ثلاثة آلاف شعيرة تتذوق الطعام لتعطيك طعم الحلو والمر .. وكل الألوان المختلفة لتذوق الطعام .. وإذا اقترب شيء محرق من جسدك صرخت الثلاثون ألف خلية فى مخك : « احترس » .. وأشعرتك بالنار التى تقترب منها .. هذا الاعجاز لا يمكن أن يتم بالارتقاء أبدا .. والطفرة رهيبة بين الإنسان وغيره من المخلوقات .. لا يمكن أن تكون إلا من صنع قدرة الله .. وقدرة الله سبحانه وتعالى .. هى التى أخذت حفنة من تراب ثم قالت « كن » .. فكان هذا الإنسان الذى يعيش فى الأرض .. ويبنى ويعمر .. ويصعد إلى القمر .. أنظر إلى كل ما يستطيع أن يفعله البشر وما سيستطيعون أن يفعلوه فى المستقبل .. تعرف ماذا يحدث عندما تمس قدرة الله حفنة من تراب ..

على أن النفس البشرية فى أعماقها لغز حتى على صاحبها .. فيها ملكات لم يكشف عنها الله سبحانه وتعالى للإنسان حتى الآن .. فالإنسان فى كثير من الأحيان لا يفهم نفسه .. ولا يصل إلى أعماقها وأسرارها .. والسلوك البشرى لا يزال لغزا أمام معظم الباحثين .. وإذا كانت هناك قوانين تحكمنا ونعرفها .. فهناك قوانين كثيرة لا نعلم عنها شيئا تحكم معظم تصرفاتنا .. فالإنسان عندما يحب مثلا .. لا يعرف لماذا يحب فقد يكون الشخص الذى تحبه لا يستحق هذه العاطفة .. وقد يكون إنسانا بالغ السوء .. وفيه من الصفات ما تكره .. ومع

ذلك تحبه . . فالحب والكره عاطفتان لا يعرف العقل البشرى قوانين لهما . . بل أن فيهما ما هو ضد المنطق والعقل فى كثير من الأحيان . . فالنفس البشرية فى عواطفها مزيج غريب من المنطق واللامنطق . . والعقل واللاعقل . . والتضحية والأنانية . . وهى لغز وستظل لغزا . .

وإذا كانت النفس البشرية لغزا لا نستطيع أن نفهمه . . فإن فيها فطرة نحس بها جميعا . . تلك الفطرة هى صلة هذه النفس بالله . . فالله يوجد فينا بالفطرة . . يعرفه الطفل . . والشاب والكهل . . والمثقف والجاهل . . وهؤلاء جميعا قد لا يستطيعون أن يشتركوا فى استيعاب شىء واحد . . ولكنهم جميعا يفهمون كلمة الله . . وتهتز نفوسهم عند سماع كلام الله رغم الفوارق بين العقول . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى يخاطب ملكات فى النفس البشرية لا نعرفها نحن . . ولكن الله سبحانه وتعالى عليم بها . . وأسعد النفوس هى النفس المطمئنة . . تلك التى أعطاها الله سعادة الدنيا والآخرة . . اطمأنت إلى قوله وعدله . . وقوته وقدرته . . وعلمه ووجوده . . اطمأنت إلى أن الله حق وأن الآخرة حق . . وأن الدنيا حق . . فعملت لكل عمله . . واطمأنت إلى أن الله ينصرها لأنها اختارت الطريق الصحيح . . واطمأنت إلى أن قضاء الله خير . . ما أعطى خير . . وما منع خير . . فالمنع رحمة لأنه بعد عن الشر أو حفظ منه . .

قضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير فى المنع وخير فى العطاء . . وهى تؤمن أن الله يدافع عن الذين آمنوا . . وأن الله يحب عباده المؤمنين . . وأنه رحيم فى قضائه مع النفس المؤمنة . . وأنه لا يوجد ظالم أقوى من عدل الله . . ولا جبار يعلو على قدرة الله . . ولا مفسد يفلت من عقاب الله . .

ولكننا فى كثير من الأحيان ننظر إلى الأشياء بمنظار آخر . . فنحن نرى فيما يحدث اجحافا وظلما . . ونحس بأن المظالم تملأ الدنيا . . ونسأل أين عدل الله . . ولكننا فى الحقيقة تضيق صدورنا لأن جزءا من الحكمة مخفى عنا . ولقد شاءت رحمة الله أن يفسر ذلك لنا . . لنرى الفرق فى كثير من الأحيان بين الظاهر والحقيقة . . وهذا موضوع فصلنا القادم عن خواطرى حول سورة الكهف .

الفصل الثالث

خواطر حول سورة الكهف

عندما نتحدث عن معانى القرآن الكريم . . فإننا فى كثير من الأحيان يجب أن نتنبه إلى الحكمة من بعض الآيات التى نقرؤها . . ذلك أننا نمر أحيانا على أشياء دون أن نتنبه إلى المعنى الذى وضعه الله سبحانه وتعالى فيها . . وأمرنا بأن نتدبر فيه . .

على أن ذلك لا يعنى أن نحاول تحميل القرآن أكثر من معانيه . . وبعض العلماء اندفاعا مع العصر . . أو محاولة فى اثبات اعجاز القرآن . . يقومون بربط بعض النظريات العلمية التى تذاع والتى تبهر الناس . . يحاولون ربط هذه النظريات ببعض آيات القرآن الكريم . .

والخطورة هنا أن النظرية العلمية تحتمل الخطأ والصواب . . فماذا يمكن أن يحدث إذا حملنا آيات القرآن ببعض النظريات . . ثم تبين بعد ذلك أن هذه النظريات غير صحيحة . . ماذا يكون الموقف .؟ إن الحماس لا يجب أن يأخذنا إلى الحد الذى نحاول فيه أن نجد فى القرآن الكريم ما يتوافق مع نظريات العلم الحديث . .

والذى أحب أن أبينه . . أن القرآن الكريم . . كتاب دين وليس كتاب علم . . علم أرضى . . بمعنى أنه لا يشرح لنا نظريات الهندسة . . أو قوانين الطب أو غير ذلك . . بل إن الله سبحانه وتعالى فى أول كتابه العزيز قد حدد الهدف . . وقال فى أول سورة البقرة :

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

ومن هنا وفى أولى آيات سورة البقرة . . أولى سور القرآن . . حدد الله سبحانه وتعالى هدف هذا الكتاب وأنه للهداية لمن آمن . .

كانت هذه مقدمة لابد منها . . عن خواطر حول سورة الكهف . .

فإن الذين يبحثون فى القرآن الكريم . . يجب أن يتأملوا فى كلام الله سبحانه وتعالى . . فالله سبحانه وتعالى قد وضع فى آياته من الأسرار ما يحتاج منا إلى التأمل وعدم المرور عليها مرورًا عابرا . . وإذا كنت سأتحدث اليوم عن خواطرى

عن سورة الكهف . . فذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع فى هذه السورة أشياء كثيرة يجب أن يقف عندها العقل . . وقبل أن نبدأ الحديث عن بعض آيات سورة الكهف . . فإننا نتوقف كثيرا عند اسم السورة . . الاسم هو سورة الكهف . . ما هو الكهف . . الكهف كما نعرفه هو فجوة داخلة فى الجبل . . ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يخلق فى أماكن كثيرة كهوفا . . لنعرف ونحس ونرى ونشاهد الكهف . .

إذن فالكهف هو فجوة داخلة فى الجبل . . هل تستطيع وأنت خارج هذه الفجوة أن تعرف ما بداخلها . . الجواب طبعا لا . . لأبد أن تبحث قليلا وتكتشف حتى تصل إلى ما هو داخل هذا الكهف وتعرفه معرفة حقيقية . . ومن هنا فإن اسم السورة لا يجب أن يمر علينا دون أن نفكر فيه . . ونعلم أن الله سبحانه وتعالى قد جاء فيها بكهوف معنوية . . يعنى أشياء تنبئنا بما يستتر هنا من حقائق فى الكون . . وفى أحداثه . . فمثلا نجد أن قصة موسى عليه السلام مع الخضر . . أو مع الإنسان الذى آتاه الله العلم . . هى قصة المراد منها ألا نحكم على الأشياء بالظاهر . . فاغراق السفينة التى يملكها مساكين كان عملا إذا نظرنا إلى ظاهره شرا . . ولكن حقيقته كان خيرا لأنه انقذ سفينة المساكين من ملك ظالم . . كان سيغتصبها . . وقتل الطفل ظاهره شر . . ولكن باطنه هو حفظ للأم والأب الصالحين . . رزقهما بطفل تقى . . يحفظ لهما صلاحهما . . ولا يرهقهما طغيانا وكفرا . . وبناء السور لأهل قرية من اللئام الذين رفضوا أن يطعموا شخصين غريبين جائعين . . هو عمل لا يتفق مع منطق الخير . . ولكن الحقيقة أن هذا السور قد بنى ليحفظ كنزا لطفلين يتيمين كان أبوهما صالحا وتوفى . . ليحفظ لهذين الطفلين كنزا تحت هذا الجدار . . حتى يبلغ الطفلان أشدهما ويستخرجا كنزهما . . ولو تهدم الجدار لأخذ أصحاب القرية من اللئام الكنز . . وحرم الطفلان منه . .

على أننى سأتحدث عن هذا بالتفصيل . . فتلك الآيات لا يمكن تناولها فى سطور بسيطة كهذه . . ولكننى أردت أن أشير إليها لسبب هام وهو معنى الكهف . . فالله يريد أن يخبرنا أيضا ألا نأخذ الأشياء بظاهر الأمور . . فالذى يبدو لنا شرا وقد يكون فى قضاء الله خيرا والعكس صحيح . .

معنى الكهف

والكهف الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة . . كان كهفا حسيا أيضا . . أى كهف حقيقى . . التجأ إليه فتية مؤمنون . . وكان هذا الكهف سترا لحق إيمانى . . خائف على نفسه من طغيان باطل كافر . . على أننى سأبدأ فى خواطرى بثلاثة أشياء تبين المعنى . . وهذه الأشياء الثلاثة . . كانت مستورة عن علم الإنسان وقت نزول القرآن . . ثم كشفها الله للعلم البشرى بعد نزول القرآن . .

فى قصة الاسكندر ذى القرنين . . ونحن لن ندخل هنا فى مناقشة حول من هو الاسكندر وتحديد شخصيته إلى آخر هذا . . فليس المقصود فى القرآن الكريم من تحديد أعلام القصص . . أن يحدد شخص بذاته لأن التشخيص قد يفسد القضية . . فإذا حاولنا أن نحدد من هم أهل الكهف مثلا . . ومن هو فرعون موسى . . ومن هو قارون . . إلى آخر الشخصيات التى ذكرت فى القرآن . . فإننا نتوه عن الحقيقة التى أراد الله سبحانه وتعالى أن نعرفها . . ذلك أن هذه الشخصيات تتكرر فى كل زمان ومكان . . وهى قصص مضروبة لكل عصر . . والعبرة هنا تأتى بالشيوع . . أى تأتى على من تنطبق عليهم القصة . . فى أى زمان كانوا وفى أى مكان وجدوا . .

فعندما يضرب الله مثلا بالذين كفروا . . امرأة نوح . . وامرأة لوط . . فهو لا يعنى بذلك هاتين المرأتين بالذات فقط . . وإنما يعنى كل إمرأة يكون زوجها صالحا وتخونه . . وعندما يضرب المثل بإمرأة فرعون . . فإنما يعنى كل إمرأة مؤمنة وزوجها كافر . . وهذا يتكرر فى كل عصر . . والحادثة الوحيدة التى لن تتكرر هى قصة مريم . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « ومريم ابنة عمران » أى أنه نسبها لأبيها لأنها لا تتكرر . .

إذن فالتشخيص فى القرآن الكريم . . ليس معناه انتهاء الحدث بالشخص . . ومن هنا فإننا حينما نتحدث عن ذى القرنين . . نتحدث عن رجل مكن الله له من كل شىء . . وأتاه من كل شىء سببا . . ولا نتحدث عن الخلاف حول شخصية ذى القرنين . . ومن هو إلى آخر ما يراد به عن البعد عن الحكمة . . إلى فرعيات ليست مطلوبة . .

نأتى إلى آية هامة فى قصة ذى القرنين .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾

وتتوقف القصة عند ذلك وتنتقل إلى شىء آخر . . هنا لم يذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية . . سوى أن ذا القرنين قد وصل إلى قوم لم يجعل الله بينهم وبين الشمس سترا . .

بعض الناس يمر على هذه الآية دون أن يتنبه إليها . . ولكن العقل يجب أن يقف هنا ليسأل . . ما هى الحكمة فى هذه الآية . . فإذا فكرنا فيها . . نجد أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن هناك قوما لم يجعل لهم من دون الشمس سترا . .

ما معنى هذا الكلام . . ما هو المقصود من أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لهم من دون الشمس سترا . . هل المفروض أن هذه الأرض قاحلة . . ليس فيها شجر يستر الناس عن الشمس . . أم المقصود أنه ليس لديهم مساكن يجلسون فيها لتسترهم من الشمس . . أم المفروض أنهم عرايا مثلا . . ليس عندهم ملابس تقيهم الشمس .

كل هذا قد يخطر على العقل البشرى . . ولكن الحقيقة أن كل هذه الأشياء لا تستر الشمس فالشمس موجودة خارج المنزل . . ولو جلست فيه . . كما أنها موجودة خارج ظل الشجرة . . ولو جلست تحتها . . كما أنها موجودة حتى ولو ارتديت الملابس التى تقيك من الشمس . . إذن كل هذا قد يبعد الشمس عنك . . ولكنه لا يسترها . . أى لا يخفيها . .

ولكن ما هو الذى يستر الشمس . . الذى يجعلها تختفى . . تغيب . . تذهب . . ما الذى يستر الشمس فى أى وضع من الأوضاع . . بحيث لا تجدها . . إنه الظلام . . إنه الليل . . الليل هو الذى يستر الشمس . . فلا تجد أشعتها فى أى مكان . . ولا تنظرها أينما كنت . . وكيفما كنت . . ولو صعدت لأعلى مكان . . ولو خرجت إلى الشارع . . فإنك لا ترى الشمس لأنها مستورة عنك بالظلام . .

هنا يجب أن نتوقف قليلا . . الله سبحانه وتعالى فى الآية الأولى وضع لنا القوانين التى يجب أن يسير عليها الممكن فى الأرض . . وقال لنا إننا يجب أن نضيف إلى الأسباب التى يعطيها الله سبحانه وتعالى أو يمكننا منها . . ثم بعد ذلك عندما بلغ ذو القرنين بين السدين وجد يأجوج ومأجوج أنهم قوم مفسدون فى الأرض . . ولكنه فى الآية الكريمة :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾

ثم يزد الله سبحانه وتعالى شيئا مما قام به ذو القرنين عندما بلغ هذه الأرض . . ولما كان القرآن الكريم كل حرف فيه بميزان دقيق . . فلابد أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا شيئا فى هذه الآية الكريمة وحدها . . إذن ما هى الحكمة المستورة فى هذه الآية الكريمة . . ؟

بعض الناس يمر على هذه الآية ولا يسأل نفسه هذا السؤال . . الله سبحانه وتعالى جعل لذى القرنين عملا حين بلغ مغرب الشمس . . وجعل له عملا حين بلغ السدين . . ولكن فى هذه الآية الكريمة لم يجعل له عملا . . إذن لاشك أن المراد هنا هو ما ذكره الله سبحانه وتعالى :

« لم نجعل لهم من دونها سترا »

ومن هنا فإن معنى الآية الكريمة :

« لم نجعل لهم من دونها سترا » . .

أن الاسكندر قد وصل إلى مناطق فى الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة . . أى أنه لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقى أجزاء الكرة الأرضية . . بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام . . وإذا بحثنا الآن نجد أن هناك مناطق فى العالم تغيب عنها الشمس ٦ شهور فى العام . . فالشمس لا تغيب عن القطب الشمالى مدة ٦ شهور . . وعن القطب الجنوبى مدة ٦

شهور . . فكأن الله تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن فى الأرض لا تخضع لقواعد تعاقب الليل والنهار كالتى تخضع لها باقى أجزاء الأرض . . وإنما تشرق الشمس عليها دون أن يسترها الظلام لفترة طويلة . .

الأذن . . والحياة . . والبعث

على أن لنا عودة فى الحديث عن ذى القرنين والآيات التى ذكرت عنه فى القرآن الكريم . . ولكن فلنبدأ الخواطر حول سورة الكهف من أولها . .

كما قلت . . الكهف فجوة داخلة فى الجبل . . لابد أن نبحث قليلا ونكتشف ما هو داخل هذا الكهف ونعرفه . . والكهف الحسى الذى ذكره الله أولا فى السورة هو الفتية الذين آمنوا بربهم . . هؤلاء الفتية كانوا مؤمنين . . خافوا على أنفسهم من طغيان باطل كافر . . فانتقلوا إلى كهف يختبئون فيه حتى لا يدفعهم هؤلاء الكفار إلى عدم الإيمان ويعودوا بهم إلى الكفر . والله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا . . إنه مهما ظهر الباطل وطغى . . فإن الإيمان موجود فى الدنيا . . قد يكون مستورا عنا . . ولكنه موجود لا ينتهى أبدا .

هذه هى الآيات الأولى من السورة . . ولكننا عندما نتأمل . . فإننا نجد فى هذه الآيات عددا من المعجزات القرآنية . . التى يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بها . . وأن يوجه نظرنا إليها . .

يقول الله تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

وهذه هى المعجزة الأولى فالله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الشىء الذى لا ينام فى الحواس هو الأذن . . أنت حين تغمض عينيك لا ترى . . ولكنك لا تستطيع أن تغمض أذنيك أبدا . . الأذن تظل مفتوحة تؤدى وظيفتها سواء أردت أو لم ترد . . إذا كنت لا تريد أن ترى شخصا . . فأنت تغمض عينيك فلا تراه أو تشيح عنه بوجهك . . ولكنك إذا لم ترد أن تسمع صوت نفس الشخص . . فأنت لا تستطيع أن تغمض أذنيك . .

وإذا كان هناك إنسان نائم . . فقد تمر بيدك قرب عينيه فلا يستيقظ . . ولكنك متى أحدثت صوتا بجانب أذنه فإنه يستيقظ على الفور . . فالله سبحانه

وتعالى يريد أن يخبرنا أولا أن الأذن لا تنام أبدا .. ثانيا إنها أداة الاستدعاء ثالثا : إنك لو فصلت الأذن عن ضوضاء الدنيا .. فإن الإنسان يمكن أن ينام فترة طويلة .. ولكنه من المستحيل أن ينام إذا تعرضت الأذن لضوضاء الدنيا .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون سنين طويلة .. دون أن يحسوا بما حولهم .. فإنه لم يأخذ أبصارهم .. ولم يجعل حركة قلوبهم تهبط قليلا .. كحركة قلب النائم .. ولكنه ضرب على آذانهم وكان هذا كافيا جدا .. ليفصل بينهم وبين الدنيا تماما طوال فترة نومهم .. والأذن هى أداة الاستدعاء فى الآخرة ..

ثم ننتقل إلى آية أخرى .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾

العقل البشرى يجب أن يتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى :

« ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال »

لماذا قال الله سبحانه وتعالى هذاالكلام .. وما هو الداعى لأن توضع هذه الألفاظ فى الآية .. مع أنها لو حذفت لا تغير من السياق كثيرا .. كما قلت وأقول دائما .. إن لكل كلمة فى القرآن الكريم معنى معجزا .. بعضه وصل إليه العقل .. والبعض الآخر سيصل إليه العقل بعد سنوات طويلة .. إذا تأملنا فى الآية الكريمة .

« ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » .

نجد أن الله سبحانه وتعالى سيبعث هؤلاء الفتية كآية من آياته .. أى سيعيدهم مرة أخرى إلى حياة البشر .. ومن هنا فإنه يضع قواعد الصحة للرقاد الطويل .. فنجد أننا الآن إذا أصيب أحدنا بمرض يتطلب رقادا طويلا .. فإن الأطباء يحذرون من أن المريض يجب أن يقلب يمينا ويسارا حتى لا يصاب جسمه

بالقروح .. أو تحدث له انسدادات فى الدورة الدموية فى القدمين .. أو فى الجزء الأسفل من الجسم ..

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن الرقاد الطويل يجب أن يتم معه تقليب للإنسان الراقد .. بحيث لا يرقد على جزء واحد من جسده فترة طويلة .. فيصاب بأضرار بالغة يعرفها الطب جيدا هذه الأيام .. كشف عنهاالله سبحانه وتعالى من علمه للناس فعرفها لهم .

ومن هنا فإنه سبحانه وتعالى .. وقبل أن يكتشف العالم البشرى ذلك بسنوات طويلة وضع هذه الآية الكريمة ليخبرنا بأنه مادام هناك رقاد طويل فيجب أن يقلب الإنسان يمينا ويسارا .. وأن يكون هذا أساسا فى المحافظة على صحته .. أو على الأقل فى منع أضرار بالغة عنه ..

المشيئة لله

ونأتى للآية الكريمة فى سورة الكهف :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾

هذه الآية يجب أن نتوقف عندها وقفة كبيرة .. لماذا : .. لأننى أنا أقول انى سأفعل كذا غدا .. وأنت تقول إنك ستفعل ذلك غدا .. والوحيد القادر على الفعل هو الله سبحانه وتعالى .. إن شاء فعل وإن شاء لا يفعل .. ونحن عاجزون تماما عن أن نفعل أو لا نفعل إلا بمشيئة الله .. ولأوضح ذلك قليلا .. الذى يريد أن يفعل شيئا .. يجب أن يملك أولا القدرة على الفعل .. ويجب أن يملك ثانيا الوقت الذى سيتم فيه الفعل .. ويجب أن يملك ثالثا المكان الذى سيتم فيه الفعل .. بمعنى أننى إذا قلت إننى سأذهب لمقابلة فلان غدا .. وهذا هو أبسط الأشياء فيها يقول الإنسان إنه سيفعله .. فإننى يجب أن أملك القدرة فى أن أكون موجودا غدا على قيد الحياة .. حتى تتم هذه المقابلة .. وأنا لا أملك هذه القدرة .. فالإنسان لا يملك القدرة على أن يهب نفسه الحياة لحظة واحدة .. وليس يوما كاملا ..

إذن قولى إننى سأقابل فلانا غدا قول خاطىء . . لأننى لا أعرف إذا كنت سأكون موجودا غدا على قيد الحياة أم لا . . الحياة رهن بمشيئة الله سبحانه وتعالى . . إن شاء أبقاها . . وان شاء أخذها . . فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى عالم القدرة . . فأنا قد أكون موجودا غدا . . ولكنى لا أستطيع أن أذهب لمقابلة هذا الشخص . . قد أمرض فجأة . . أو قد يأتينى شىء مفاجىء عاجل . . أو قد يهبط على ضيف غير متوقع مثلا . . أو يحدث أى شىء آخر . . المهم أننى قد أكون على قيد الحياة . . ومع ذلك لا أستطيع أن أذهب لهذه المقابلة . . بسبب أشياء لا أملك القدرة على عدم حدوثها . .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى النقطة التالية . . وكنت أنا على قيد الحياة . . وبصحة جيدة . . وانتفت جميع الظروف التى تمنعنى من أن أتم هذه المقابلة . . فهناك الطرف الآخر . . وهو الشخص الذى سأقابله . . وقد أذهب فلا أجده فى مكتبه لأى سبب . . يتعطل فى الطريق . . يمرض . . يأتيه عمل مفاجىء . . يحدث له أى شىء مفاجىء يمنعه من حضور المقابلة . . كأن تتعطل سيارته . . أو يصطدم بسيارة أخرى فيضطر للذهاب إلى الشرطة . . أو تحدث له أى مشكلة فى الطريق . . أو فى المنزل . .

المهم فى هذا كله . . اننى لا أملك عنصرا واحدا من عناصر القدرة على العمل لأقول انى سأفعل كذا . . ولكن من الذى يملك القدرة . . هو الله سبحانه وتعالى . . فهو الذى يقول كن فيكون . . حى لا يموت . . باق لا يفنى . . لا يستطيع أحد أن يشغله عن شىء . . أو أن يمنع فعله أو قضاءه . . فإنه متى قضى شيئا فإنه يكون . . لماذا . . لأنه ليست هناك قوة تستطيع أن توقف . . أو تمنع . . أو تؤجل . . أو تؤخر . . أو تقدم ما يريده الله سبحانه وتعالى . .

ومن هنا فإن الفعال لما يريد هو الله سبحانه وحده . . أما نحن جميعا كلنا . . كل البشر فعالون لما يشاء الله . . فمادام العمل يدخل فى المشيئة فهو سيتم . . لأن الله وحده هو الفعال . . ومادام العمل لا يدخل فى المشيئة فهو لن يتم . . لأن الله وحده هو الفعال . .

ومن هنا فإن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾

يريد أن يلفتنا إلى حقيقة كونية هامة .. لأن الذى يتم هو مشيئة الله وارادته .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾

حتى تتذكر دائما أن الله هو الفعال ..

والإنسان أصله من تراب .. ثم من نطفة .. وهو الخلق بعد آدم .. التراب أو النطفة لا تستطيع أن تفعل شيئا من هذا التراب الذى ندوس عليه كل يوم هو نفس الجسد الذى نمشى فوقه .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل الإنسان يفيق من الغرور ويذكره بخلقه .. وإذا كنت أنت من تراب وأنا من تراب .. فمن أين جاءتك القدرة الخارقة التى تجعلك تنسى الله وتعبد نفسك ..

الله سبحانه وتعالى هو الذى وهبك هذه القدرة .. هو الذى خلق الكون لك .. وسخره من أجلك .. ولكى تعرف هذه الحقيقة يجب أن تعلم جيدا أن الله فعل هذا كله من حفنة من تراب .. فهؤلاء الذين تراهم أمامك يعبدون أنفسهم هم حفنة من تراب مستها قدرة الله سبحانه وتعالى .. ولكى تسجد لهذه القدرة تأمل قليلا فيما استطاعت أن تفعله فى حفنة من تراب .. وكيف حولتها إلى إنسان يسود الكون كله ..

إن الله يريد إن يذكرنا بنعمه وأن نعلم دائما أن الفضل منه .. وأن الذى أعطى يستطيع أن يأخذ .. وأن الذى منح يستطيع أن يمنع .. وهذه مسألة هامة جدا فى سلوكيات الحياة .. لماذا ؟ .. لأن الإنسان حينما يغتر بقدرته يبطش ويظلم ويفتك بالضعفاء .. ويطغى فى الأرض .. أما إذا تذكر أن هذا كله من قدرة الله وأن الله سبحانه وتعالى الذى منح يستطيع أن يأخذ .. والذى أعطى يستطيع أن يوقف هذا العطاء .. فإن خشية الله تدخل فى قلبه فتجعله يراجع نفسه فلا يبغى ولا يظلم ويخشى الله فى كل عمل يعمله .. وفى هذا صلاح الكون كله ..

الفضل لله وحده

ثم بعد ذلك تأتى الآية الكريمة فى استكمال الحوار .

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

هذه الآية ترد الشىء إلى أصله .. فالرجل هنا يذكره بقدرة الله التى نسيها .. ويقول له أنت نسيت الذى وهب .. وظننت أن ذلك من فعلك أنت .. وأن الأسباب هى التى أعطتك كل هذا .. ولكن الله هو الواهب الحقيقى .. وهنا يجب أن نتنبه إلى الكهف المعنوى الذى تحدثنا عنه فى أول الكلام فالعطاء هنا مستور داخل كهف الحقيقة .. المعطى هو الله سبحانه وتعالى .. ولكن هذه الحقيقة مسورة بالأسباب .. ومن هنا نجد بعض الناس يقول : إنما أوتيته على علم عندى .. والبعض الآخر يقول أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا .. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبهنا إلى الحقيقة فى كهف ظاهره الأسباب .. وباطنه قدرة الله سبحانه وتعالى ..

فماذا قال الله سبحانه وتعالى على لسان الرجل الأقل مالا وولدا .. قال :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

هنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يأتى بعاملين أساسيين فى النعمة التى يتمتع بها ذلك العبد الذى اغتر بماله وبقدرته .. فقال :

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾

لماذا ذكر الله سبحانه وتعالى هذين العاملين . . ولم يذكر أية عوامل أخرى . . كأن يقول له مثلا ربما الله يستطيع أن ينهى أجلك غدا . . أو يستطيع أن يصيبك بمرض فلا تستطيع الحركة . . أو أى نوع آخر من أنواع النعم التى يستطيع الله سبحانه وتعالى أن يسلبها من هذا الرجل الذى أصابه الغرور ونسى نعمة الله . .

السبب الأساسى فى ذلك أن هاتين النعمتين بالذات . . هما سبب وجود هذه الجنة . . أو الأرض الكثيرة الثمر . . الكثيرة الخير . . وهذان العاملان لا دخل لهما فى قدرة الرجل نفسه على العمل والعطاء . . حتى يمكن أن يقال إنه هو الذى استطاع أن يهب لنفسه هذه الأرض الكثيرة الخير . . والله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يذكرنا بأسباب قد تكون خافية علينا . . ولكنها الأساس فى الخير كله . . فالماء الذى يسقى منه الرجل هذه الجنة الصغيرة . . هذا الماء لم يخلقه هو . . ولن يستطيع أن يخلقه . . بل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى ساقه إليه . . ذلك أن العالم كله الآن وبعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن الكريم عاجز عن أن يوفر كوب ماء لشخص واحد . . وأمامنا المثل الحى . . هذه المساحات الشاسعة من الصحراء . . لو أن الإنسان يستطيع بعلمه أن يخلق الماء . . لخلق لها الماء الذى يحولها من صحراء قاحلة إلى جنات وافرة الظلال والثمر .

فالأساس هنا فى هذه الجنة وفى الزرع والثمر الموجود فيها هو قدرة الله سبحانه وتعالى الذى وفر لها الماء . . وهذه ليست قدرة أى بشر . . ولا يستطيع بشر أن يدعيها حتى يومنا هذا . . فالعلم البشرى بكل قدراته عاجز عن أن يخلق نهراً وسط صحراء . . ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى خلقت مئات الألوف من الأنهار . . التى تسقى كل من يعيش على الأرض من إنسان وحيوان وزرع . . وتسقيه بما يحتاج . . وأحيانا بأكثر من حاجته . .

إذن العامل الأساسى فى وجود الخير كله هو الماء . . هو توافر الماء الذى خلقه الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكر الإنسان الذى أصابه الغرور فى نفسه . . بأن الأساس فى كل هذا هو الماء الذى وفرته لك والذى لا تستطيع أنت أن توفره . . ويقول سبحانه وتعالى .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى يحفظ هذا الزرع من كل ما يهلكه من أنواء وعواصف وصواعق قد تقضى عليه .. وهذا ليس فى قدرة البشر .. بل هو ارادة الله سبحانه وتعالى .. يعطيها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء .. ومن هنا قوله تعالى :

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾

الله .. هو الفعال

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى حقيقتين مستورتين عنا فى هذه النعمة .. وهاتان الحقيقتان هما الأساس .. الحقيقة الأولى أن الله سبحانه وتعالى قد أعد هذه الجنة بالماء أساس الحياة والزرع فيها .. والحقيقة الثانية قد حفظها وبارك فيها .. وكلا الأمرين ليس للبشر فيهما مشاركة .. بحيث يستطيع أن يجادل ويقول أنا فعلت وفعلت .. فالإنسان مثلا حين يزرع .. يضع الحب فى الأرض ويرعاه .. ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى هى التى تجعل هذا الحب فى الأرض ينمو ويثمر .. ولكن هنا مشاركة بشريه ظاهرية قد تجعل البشر يقول أنا الذى زرعت .. ولكن الله سبحانه وتعالى أتى بحقيقتين لا يستطيع أى إنسان فيهما أن يقول أنا شاركت .. الحقيقة الأولى توفير الماء الذى يكفى لاعطاء الحياة لهذه الأرض وجعلها صالحة للزرع .. وبدون هذا الماء لا يمكن أن توجد مثل هذه الجنة .. والحقيقة الثانية أنه حفظها وبارك فيها .. وكلتا الحقيقتين كما قلت لا يستطيع الإنسان أن يشارك فيهما أو يدعى أنه هو الذى أوجدهما .. وهكذا .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾

ولكن لماذا أحيط بثمره ؟ حتى يعرف أنه لا حول له ولا قوة .. وإن المال والنفر اللذين اعتز بهما من دون الله لا يملكان له نفعا ولا ضرا . ومن هنا فإنه أصبح ليجد الجنة خاوية على عروشها .. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين له أن

من يعتز بهم من دون الله لن يستطيعوا أن يوقفوا قضاء الله . . وأن الله سبحانه وتعالى وهبه هذه الجنة بقدرته هو . . فلما كفر بالنعمة . . واغتر بالمال والولد . . زالت عنه وذهبت . . والتفت حوله فوجد الآية الكريمة :

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾

أى أنه بحث عن أولئك الذين كان يعتز بهم فلم يجد أحدا يستطيع أن ينصره أمام قدرة الله . . وما كان منتصرا أى أنه حتى لو حاول ذلك بما له من مال أو نفر فلن يكتب له النصر . . .

هنا تأتى لحظة الندم فيقول :

﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾

فقد أحس عندما ذهبت النعمة أن الواهب هو الله وحده وهو الذى أخذها . . ولكنه كان قبل ذلك يقول . . ان المال والنفر الذين عنده هم الذين يحفظون هذه النعمة من الزوال ويرعونها . . وتمضى هذه الآية الكريمة . . بعد أن ضرب الله هذا المثل للرجل الذى أنعم عليه . . فأشرك غير الله فى هذه النعمة . . فأخذ الله منه ذلك . إن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الشركاء عن الشرك . . فالعمل الذى يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى . . يتقبله الله ، والذى يقصد به ارضاء بشر ما . . ويفسره صاحبه على أنه تقرب إلى الله سبحانه وتعالى . . فالله غنى عنه . . وكذلك النعم . .

والله يضرب لنا هذا المثل . . حتى نتخذ الطريق السليم فى الحياة . . فلا أدفع مبلغا من المال مثلا لعمل خير ويكون القصد الحقيقى من ذلك هو ارضاء شخص ما . . أو قضاء مصلحة دنيوية . . أو الحصول على سمعة أو شهرة . . أو أى غرض دنيوى آخر . . فإذا أتيت إلى حفل ما . . وقمت أعلن تبرعى بمبلغ من المال حتى يقال عنى إننى رجل خير ورجل بر وإحسان فإنى لا أفعل ذلك لوجه الله . . وإنما أشرك فى ذلك ما أبتغيه من سمعة الدنيا . . والله سبحانه وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك . . وإذا قدمت مبلغا من المال وأنا

أبتغى مرضاة الله . . فالله أغنى الشركاء عن أن يشرك معه أحدا فى عمل يقصد به وجهه . .

ومن هنا . . فإن الذى فعله صاحب الجنة فى أنه نسب الفضل إلى نفسه . . وأنكر نعمة الله أو الذى يفعله بعض الناس فى أنه يريد أن يحقق مصلحة دنيوية بعمل ظاهره الخير . . كل هذا يخبرنا الله سبحانه أنه لا يتقبله . . العمل الصالح لله وحده . . أما إذا كان عملا صالحا نقصد به مصلحة دنيوية وفى نفس الوقت يقال إنه لله . . فالله غنى عنه . .

حديث قدسـى

●● قال الله عز وجل لآدم : يا آدم انى عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها ؟ قال : وما لى فيها يارب ؟ قال : إن حملتها أجرت وأن ضيعتها عذبت . قال : فقد حملتها بما فيها فلم يلبث فى الجنة إلا ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها .

حديث قدسـى

●● ينزل الله تبارك وتعالى فى آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل ، فينظر الله فى الساعة الأولى منهن فى الكتاب الذى لا ينظر فيه غيره ، فيمحو ما يشاء وينظر ، ثم ينظر فى الساعة الثانية فى جنة عدن وهى مسكنه الذى لا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصديقون ، وفيها ما لم يره أحد ولا خطر على قلب بشر ، ثم يهبط فى آخر ساعة من الليل فيقول : ألا من مستغفر يستغفرنى ، فاغفر له ؟ ألا سائل يسألنى ، فأعطيه ؟ ألا داع يدعونى ، فأستجيب له ؟ حتى يطلع الفجر ، وذلك قول الله : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) فيشهده الله وملائكة الليل والنهار . .

الفصل الرابع

علم الله.. وعلم الأرض

وقبل أن نترك الحوار حول سورة الكهف .. يجب أن نتعرض إلى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام وقصة ذى القرنين .

واسم هذا العبد الصالح مسألة لا يحدث عليها جدال .. إنما هو عبد علمه الله من لدنه علما .. والله سبحانه وتعالى حين يضرب الأمثال فى القرآن الكريم يريد أن يعطينا الحكمة والموعظة .. ولا يريدنا أن ندخل فى مجادلة حول من هذا الشخص أو من هذه المرأة .. ذلك أن الأسماء هنا لا قيمة لها .. وإنما القيمة الحقيقية فى الموعظة والحكمة .. ولذلك لم يعرف الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم إلا اسمين هما مريم ابنة عمران .. وعيسى ابن مريم .. لأن ما حدث لهما لن يحدث لغيرهما .. ولذلك كان التعريف هنا واجبا .. أما فرعون مصر وذو القرنين .. وفرعون موسى .. وكل ذلك تركه الله سبحانه وتعالى بلا تعريف .. حتى لا ندخل فى جدل حول الأسماء .. ونترك الحكمة .. ففرعون هو كل رجل يريد أن يعبد فى الأرض .. وذو القرنين هو كل من أعطاه الله الأسباب للأشياء .. إلى آخر ذلك .

يقول الله سبحانه وتعالى **« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما »** وقول الله سبحانه وتعالى هذا كهف يستر حقيقة .. فموسى رسول الله .. والرسول هو المبلغ عن الله .. ومن هنا فالمفروض أن كل علم يأتى عن طريقه .. لأنه مكلف بابلاغ الرسالة ..

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه ليس على مشيئته قيود أو حدود .. وهو يفعل ما يشاء ويختار .. ومن هنا فإنه قد يختار عبدا من عباده . يؤتيه علما لم يؤته لأحد من رسله .. وهذا فضل الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء .. مشيئة الله ليس عليها قيود .. وليس لها حدود ..

ثم نأتى بعد ذلك إلى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام .. وفيها عدة حقائق فى كهوف .. ولكن الكهوف التى تستر الحقيقة تأتى أولا .. ثم بعد ذلك تأتى الحقائق .. ومن هنا فإن موسى عليه السلام عندما يرى الكهوف .. ولا يرى الحقائق التى تسترها .. لا يستطيع الصبر على ذلك .. ومن هنا يقول له العبد الصالح **« إنك لن تستطيع معى صبرا »** ثم يضيف **« وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا »** .

العبد الصالح حكم بعلمه الذى علمه الله له .. وموسى عليه السلام حكم بما يعلمه .. ومن هنا اصطدم الحكمان .. فالعبد الصالح كان يقوم بعمل

خير ، **حقيقته مستورة فى كهف ظاهره الشر** . . وموسى كان يرى فى هذه الأعمال ما هو ظاهر فقط ويحكم به . . لأنه لا يعلم باطن الأمور . . وفرق كبير بين الظاهر والحقيقة . . فالظاهر يراه الناس جميعا . . أما الحقيقة فإن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلمها . . قد يؤدى الإنسان الصلاة ليقال عنه إنه رجل صالح . . بينما هو يعصى الله فى كل أمور الدنيا . . وقد يصليها رجل يملأ قلبه الإيمان . . كلاهما أمامنا يصلى . . ولكن الله يعلم الذى يصلى خشية له واتباعا لدينه . . والذى يصلى ليقال عنه انه رجل صالح . . ثم يفعل كل ما نهى الله عنه . .

ومثل ذلك الاحسان . . قد يحسن الإنسان وسط جمع من الناس لينال هدفا دنيويا . . وقد يبتغى فضل الله بحيث لا تعرف شماله ماذا أعطت يمينه . . كلاهما أمامنا يحسن . . ولكن الجزاء هنا مختلف . .

ومثل ذلك ينطبق على أشياء كثيرة فى الحياة . . الحياة كلها كهوف تخفى حقائق . . إنسان يقول إنه يريد لك الخير بينما هو يضمر الشر . . وآخر يسعى لإيذائك ويقسم أنه يسعى لفائدتك إلى آخر ذلك . .

عندما يصطدم الحكمان

هنا عندما يصطدم الحكمان . . يقول موسى عليه السلام « **ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا** » . . ولكن الذى يستطيع أن يصبر هو المكلف بهذه الأعمال الذى يعرف حكمها . . والذى تلقى الأمر من الله سبحانه وتعالى . . أما من سترت عنه هذه الحكمة فإنه لا يستطيع أن يصبر . . ومن هنا يأخذ العبد الصالح عهدا على موسى فيقول له . . « **فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** » .

وفى هذا حكمة أنه ما لم يعلم الله سبحانه وتعالى الإنسان الحقائق المستورة وراء الأفعال الظاهرية التى تحدث أمامه فإنه يضيق صدره ولا يستطيع الصبر . . وموسى عليه السلام رسول الله وكليمه ولكنه لم يستطع أن يصبر على أفعال أخفى الله سبحانه وتعالى عنه حكمتها . فإذا كان هذا قد حدث لموسى عليه السلام . . فنحن كبشر فى كثير من الأحيان تضيق صدورنا بما هو ظاهر أمامنا . . فنرى رجلا يعصى الله سبحانه وتعالى ومع ذلك يوسع الله له فى رزقه . . ورجلا آخر يسعى فى الشر . . ومع ذلك يمكنه الله سبحانه وتعالى من أمر من الأمور . .

ورجل ثالث يسعى فى الأرض فسادا . . فلا يخسف الله به الأرض . . بل يبدو ظاهريا للناس أنه يستطيع أن يفعل ما يريد . .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . إن هذا الذى ترونه أمامكم هو الكهوف الظاهرية للحقائق التى أسترها . . والتى يصل إليها علمى وعلم من أعلمه . .

وبذلك لا تحكموا بالظاهر . . تحسبون أن الخير الظاهرى هو خير حقيقى . . وأن الشر الظاهرى هو شر حقيقى . . فقد يحدث لك شىء تعتقد أنه شر . . ثم تمضى الأيام ويظهر ما هو مستور عنك . . فتجد أنه كان فيه الخير العميم . . وإنك لعدم ادراكك وعلمك قد حسبته شرا وقت حدوثه . . وقد يحدث لك خير وتفرح به . . ثم بعد ذلك يظهر أنه شر كنت تتمنى عدم حدوثه . .

والأمثلة فى حياة كل منا كثيرة . . فكلنا ضاعت منه فرص اعتقد أنها خير . . وحزن على ضياعها . . ثم جاءت الأحداث التالية لتمنحه فرصا أحسن . . وكانت حكمة الله أن يمنع عنه شيئا ليعطيه ما هو خير منه . . كذلك ما نعتقده شرا فى يوم من الأيام يصبح فجأة خيرا بعد أن تتكشف لنا الأحداث وتظهر الحكمة . . حامدين الله سبحانه وتعالى على أن ذلك حدث . . وكلنا لو استعرض شريط حياته لوجد عشرات الأحداث التى تبين له هذه الحكمة . .

ولكننا مع ذلك لا نطيق صبرا . . حين تقع الأحداث رغم علمنا بهذه الحقيقة . . لأنه مادامت الحكمة خافية عنا فإن الصدور تضيق والصبر يصبح بلا طاقة . . ولكن المؤمن هو الذى يعلم أن الخير فيما اختاره الله . . والشر فيما منعه وأبعده . .

نعود بعد ذلك إلى قصة موسى والرجل الصالح . . حين دخلت التجربة فى الحركة الفعلية فى الأحداث التى نعيشها . . ماذا جرى . . الكلام النظرى شىء . . وعندما تحدث الأفعال شىء آخر . . عندما تحدث الأفعال لا يملك الإنسان نفسه وينسى كل شىء . . وينفعل مع الأشياء بظاهريتها . . وذلك أمر يجب أن نتنبه إليه . . هناك فرق فى التأثير داخل النفس البشرية . . بين كلام يقال . . من السهل أن يصبر عليه الإنسان . . وبين الوقائع التى تحدث . . فإن النفس تنفعل بالوقائع وفى لحظة الانفعال تنسى أشياء كثيرة . .

ركب موسى والعبد الصالح سفينة . . والسفينة مملوكة لمساكين . . وموسى كنبى فيه الخير . . يعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوصى برعاية المساكين . . ومن

هنا فإن من واجبه أن يعاونهم ويقدم لهم كل ما يحتاجونه ابتغاء مرضاة الله .. يركب موسى والعبد الصالح السفينة .. فإذا بالعبد الصالح بدلا من أن يقدم العون لهؤلاء المساكين أو يقدم لهم المساعدة .. أو حتى يمنع عنهم الأذى وهو أقل ما يجب .. إذا بالعبد الصالح يخرق السفينة ليعيبها ولا يطيق موسى صبرا على ذلك ..

كيف يقوم العبد الصالح بهذا العمل .. كيف يخرق السفينة ويعيبها حتى لا يستطيع هؤلاء المساكين أن يحصلوا على رزقهم بواسطتها .. أو حتى يقطعوا من قوتهم لاصلاحها .. وفرق بين سفينة سليمة .. وسفينة معيبة فى طلب الرزق وفى خدمة هؤلاء المساكين ..

ولا يطيق موسى صبرا .. فيحتج ويقول « **أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا** » .. وهنا يذكره العبد الصالح بعهده ويقول له « **ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا** » .. فيتنبه موسى عليه السلام إلى ما فعل ويقول « **لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا** » ..

لو أوتى العلم

ولو أن موسى عليه السلام أوتى علم العبد الصالح لفعل ما فعله العبد الصالح فى السفينة .. ولكنه هنا حجب عنه العلم .. فضاق صدره بظاهر الأحداث ..

ويمضى العبد الصالح وموسى عليه السلام فى رحلتهما .. وينطلقان فيلقى العبد الصالح غلاما فيقتله .. وهنا ينفد صبر موسى مرة أخرى .. كيف يقتل هذا العبد الصالح غلاما لم يؤذهما .. ولم يفعل شيئا .. وهنا نلاحظ أن حادث قتل الغلام أكبر من حادث خرق السفينة . ويقول موسى عليه السلام « **أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا** » ..

هنا يظهر الفرق بين من عنده الحقيقة .. وبين من حجبت عنه الحقيقة .. ولكن قتل الغلام مسألة تحتاج إلى قدر أكبر من عدم الانفعال لا يقدر عليه البشر .. فيذكره العبد الصالح بعهده .. ويقول له « **ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا** » .. وهنا يتذكر موسى عليه السلام أنه نسى هذا مرتين فيقول له « **إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا** » .. أى أنى أعذرك إذا رفضت مصاحبتى لأننى لا أطيق الصبر ..

وينطلق الاثنان معا إلى قرية . . هما غريبان وجائعان . . ويطلبان من أهلها طعاما . . والمفروض أن الغريب إذا مر بقرية فإن أهلها يعرضون عليه الضيافة ولو لم يطلب . . والخلق الإنسانى يقضى بأن يكرم أهل القرية الغريب الذى يدخل قريتهم ويطعموه حتى إذا لم يطلب الطعام . . فما بالك إذا كان جائعا . . وطلب منهم لقمة ليقيم بها أوده . . فإذا بهم يرفضون حتى ذلك . .

شخصان غريبان جائعان . . موسى عليه السلام والعبد الصالح . . دخلا القرية . . وطلبا من أهلها لقمة صغيرة فرفضوا أن يعطوهما أى شىء . . ماذا يكون سكان مثل هذه القرية . . يكونون من اللئام الذين لا يستحقون أى معروف . .

ولكن موسى عليه السلام يفاجأ . . العبد الصالح يجد جدارا متهدما فى القرية فيعيد بناءه ويكمله ويجمله . . ويذهل موسى عليه السلام من هذا التصرف . . لقد طلبنا لقمة من أهل هذه القرية لنسكت بها صراخ الجوع فرفضوا . . وأنت تجمل لهم قريتهم . . وتبنى جدارا متهدما جزاء لهم على ذلك . . كان من الأولى أن تطلب أجرا نأكل به طعامنا بدلا من أن نقوم بذلك مجانا . . فهؤلاء أناس لا يستحقون المعروف . . وهنا قال موسى عليه السلام « **لو شئت لاتخذت عليه أجرا** » . .

ولأن هذا هو الفرق بين العبد الصالح وموسى عليه السلام . . فقد عاهده أول مرة ونسى . . وعاهده ثانى مرة ونسى . . واتفقا على أن المرة الثالثة تكون فراقا بينهما فلا يصاحبه . . فقال له العبد الصالح « **هذا فراق بينى وبينك** » . .

ولكنه لم يقل له هذا الكلام ويمضى . . بل بين له الحكمة فى كل ما حدث . . قال إنه خرق السفينة التى يملكها المساكين . . ولكنه خرقها لينجيها من ملك ظالم كان يأخذ كل سفينة غصبا . . ومن هنا لكى تنجو هذه السفينة ولا تضيع . . وتبقى لهؤلاء المساكين . . كان لابد أن يعيبها حتى لا يأخذها الملك الظالم . . والسؤال أيها خير . . أن تبقى للمساكين سفينة فيها عيب يستطيعون اصلاحه أم لا تبقى لهم سفينة على وجه الاطلاق . . أيهما خير للمساكين أتكون لديهم سفينة مخروقة . . أم يستولى الملك الظالم على السفينة . . ولا تبقى لهم سفينة أصلا . . لو خيروا لاختاروا ما حدث . . ووجدوا فيه الخير العميم لأن الذى حدث هو شىء بسيط أنقذ لهم السفينة وأبقاها . . ومن هنا فلو عرفوا الحكمة لاختاروا

الواقع .. ولكن غياب الحكمة عن موسى عليه السلام جعله لا يطيق صبرا على الواقع ويعتبره شرا .

وجد غلاما فقتله

نأتى بعد ذلك إلى قصة الغلام الذى قتله العبد الصالح .. ماذا كانت الحكمة .. « **فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا** » ..

أى إنسان ينظر إلى الابن كقرة عين .. وامتداد له .. وذكرى حسنة يتركها فى الدنيا .. ولكن الإنسان إذا نظر الى ابنه فى أنه سيكون السبب فى شقائه وتعبه .. ويفتنه فى دينه .. هو رجل صالح .. فإنه فى هذه الحالة يتمنى من الله سبحانه وتعالى أن يبدله بابن غيره صالح مؤمن ..

فالابن .. أو الابنة .. وهذا ما نراه كثيرا فى حياتنا كل يوم .. عندما لا يكون صالحا .. قد يفتن أبويه فى دينهما .. قد يجعلهما يسرقان من أجله .. أو يرتكبان ما يغضب الله ليرضياه .. ومن هنا فأنت أحيانا تسرق من أجل ابنك .. وأحيانا تطغى من أجل ابنك .. والأب دائما والأم ضعيفان أمام الابن فى مطالبه ..

والإنسان الصالح لا ينظر إلى هذه الحياة وحدها .. وإنما ينظر إلى الحياتين معا .. الدنيا والآخرة .. ومن هنا حين يمد يده إلى مال غيره يعرف أنه سيحاسب .. وأنه سيعذب من أجل ذلك .. فلا يكون سعيدا بهذا المال الحرام .. بل يكون شقيا به .. وهكذا كل ما يغضب الله مهما كان فيه من بهجة دنيوية .. فإنه بالنسبة لرجل غير صالح .. أو غير مؤمن قد يسعده ذلك الذى يبتغى لذة عاجلة .. أما الإنسان المؤمن فإنه مهما أعطته الدنيا بطريق يغضب الله لا يمكن أن يكون سعيدا بما حصل عليه لأنه يعلم يقينا أنه باغضابه لله .. وارتكابه ما نهى عنه لن يحصل على شىء إلا الشقاء فى الدنيا والآخرة مهما كان ذلك الظاهر السريع يحمل من أشياء تفتن الكافر أو غير المؤمن ..

إذن .. إذا خير الوالدان الصالحان فى أن يهبهما الله ولدا فاسدا يضيع لهما دينهما ويخرجهما من الطاعة إلى الاثم .. أو لا يهبهما ولدا على الاطلاق .. اختارا الثانية .. ذلك أنهما يعلمان يقينا أنه من الخير لهما ألا يكون لهما ولد .. على أن يكون لهما ولد أو ابنة يورثهما الشقاء .. ويجعلهما يخرجان عن طاعة الله ..

الله سبحانه وتعالى لو خير الوالدين الصالحين وقال لهما هذا الابن سيؤدى بكما إلى النار .. وسيجعلكما تطغيان وتكفران .. لقالا يا ربى لا نريده .. إذن الاختيار هنا هو اختيار الرجل الصالح لما فيه الخير .. لو خير هذا الرجل بين ابن فاسد .. أو ابنة فاسدة تؤدى به إلى الكفر والطغيان وبين ذهاب هذا الابن .. أو هذه الابنة ..

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى اختار لهذين الوالدين الخير .. بل انه اختار لهما رحمة منه هائلة .. فالابن الذى قضى أجله وهو غلام قد منع عنهما الشرور التى كان سيرتكبها فى الدنيا .. وبذلك لحقه الله بوالديه فى الجنة رحمة بهما .. هذه واحدة .. والثانية الله سبحانه وتعالى يريد أن يبدل بهذا الابن غلاما آخر صالحا مصداقا لقوله تعالى .. « **فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما** » .. فالله سبحانه وتعالى قد اختار أن يبدل هذا الغلام الذى كان سينشأ فاسدا غير صالح .. وسيؤدى بأبويه إلى الكفر وإلى النار .. وأبواه صالحان مؤمنان قد اختار الله سبحانه وتعالى برحمته أن يبدلهما خيرا منه .. أى ولدا صالحا .. يكون خير ذكرى لهما يتركانها فى هذه الدنيا ..

ونحن حين نتابع الأحداث .. لا يجب أن نربط الحدث بزمن .. ذلك أن الزمن شيء نسبى موجود عندنا فقط .. أما الله سبحانه وتعالى فلا يحده زمن .. ومن هنا فإننا حينما نستحضر أى عمل يجب أن نستحضر العمل والجزاء عليه .. فنحن حين نرتكب معصية من المعاصى .. قد يفرح بها غير المؤمن .. يفرح بأنه حصل على مال حرام .. أو أنه أخذ ثمرة عمل غيره .. أو أنه ظلم إنسانا وطغى فى الأرض ليحصل على مكسب عاجل ..

ولكن الأمور لا تؤخذ هكذا بالنسبة للإنسان المؤمن .. والفرق هنا بين المؤمن والكافر .. أن الجزاء قد حجب عن الاثنين معا .. ولكن الإنسان المؤمن يرى الجزاء عن يقين .. وكأنه حاضر أمامه .. بينما الكافر لا يرى الجزاء لأنه مستور عنه .. وهو لا يؤمن به .. ولو كان الجزاء مكشوفا عنا لتساوى المؤمن والكافر فى الطعام .. فإذا ملأنا حجرة بالذهب .. وقلنا لإنسان هذا مال حرام هو لك .. خذه وتمتع به أياما معدودة .. ثم فتحنا له باب الحجرة فرأى عذاب الله فى نار جهنم .. وقلنا له بعد أن تتمتع بهذا المال لأيام معدودة سنلقى بك فى هذه الحجرة لتلقى جزاءك من الله .. فى هذه الحالة لن تمتد يده إلى قطعة واحدة من هذا الذهب .. وكذلك كل معاصى الله لن يقربها .

ولكن الذى يحدث . . أن الإنسان المؤمن يرى هذا فى عقله . . ولو أنه غيب عنه . . فهو حين يمد يده إلى مال حرام تظهر أمام عينيه صورة النار . . وعذاب الله . . فيبتعد مسرعا مستعيذا بالله من هذه المعصية . . أما الكافر . . أو غير المؤمن فإنه لا يستحضر هذا العذاب . . وينكره . . أو على الأقل يحاول أن ينكره . . وأن يقنع نفسه بأن كل هذا غير صحيح . . ومن هنا فإنه ينطلق إلى الحرام معتقدا موهما نفسه أنه لا عقاب بعده . . وأن الذى سيغنيه فى الدنيا هو مكسب له لن يحاسب عنه فى الآخرة . . بينما الحقيقة المستورة هى غير ذلك تماما . .

ومن هنا فإن الإنسان المؤمن يرى المعصية جزاء وعذابا من الله . . والإنسان غير المؤمن يرى المعصية مكسبا ومغنما . . وباختلاف النظرة يختلف العمل . . ولكن الحقيقة تبقى وإن كانت خافية مستورة عنا . . وهى أن كل عمل له حسابه . .

أى اختيار للأبوين

نعود بعد ذلك إلى قصة الغلام الذى قتله العبد الصالح . . لو أن هذا الغلام عاش ولم يأت أجله . . ونشأ فاسدا وأورد أبويه النار وجعلهما يسرقان ويطغيان ليرضياه . . أكان ذلك خيرا لهما . . أم أن يبدله الله بغلام صالح يحفظ لهما دنياهما وآخرتهما . . ؟

لو رأى الأبوان الصالحان الغيب لاختارا الواقع . . لأنهما يعرفان يقينا أن هناك حسابا . . وأن هناك بعثا . . وهما يرعيان الله فى أمورهما فى الدنيا . . بهذا اليقين المستقر فى قلبيهما . .

إذن الذى حدث رغم أن ظاهره الشر ، حقيقته خير للأبوين . . الصالحين . . وللغلام . . ولكن الذى ستر عنه الغيب يحسب أنه شر .

والغريب أننا فى حياتنا نفعل أشياء كثيرة من أجل أن نحصل على حياة أفضل فى المستقبل . . فالأب والأم مثلا يحرمان نفسيهما من كل مباهج الحياة . . ليوفرا لأولادهما العلم الذى يجعلهم قادرين على حياة كريمة . . بل انهما يسعيان ليوفرا لأولادهما حياة أسعد من تلك التى عاشوها معهما . . والإنسان المريض يحرم نفسه من طعام يحبه . . أو من شراب تشتهيه نفسه . . أو من أشياء كثيرة يهواها قلبه . . ويتحمل مرارة الدواء . . وربما الرقاد الطويل ليحصل على الصحة . .

هذه سنن الحياة لا اختلاف عليها . . فإذا جئنا إلى الحياة الدنيا والآخرة وجدنا بعض الناس يسرعون إلى مغنم عاجل . . ناسين ذلك القادم وهو جزاء الله . .

وتعجب أنت من إنسان يحرم نفسه من بهجة الحياة فترة طويلة . . ويظل يذاكر ويكدح حتى يحصل على حياة طيبة . . ثم هذا الإنسان نفسه ينكر سنة الله سبحانه وتعالى التى اتبعها هو فى الأمور الدنيوية . . فيقترف الآثام . . ويرتكب المعاصى . . ناسيا أو متناسيا أن ذلك مثل الذى يلعب فى صباه . . ويفعل ما تهواه نفسه . . فإذا كبر لم يجد عملا يقتات منه . . بل انه أكثر من ذلك بكثير . . فالحياة الدنيا أيام معدودة . . والحياة الآخرة خلود . . والحياة الدنيا أن يتمتع الإنسان بقدراته هو . . والحياة الآخرة أن يتمتع الإنسان بقدرة الله سبحانه وتعالى . . التى لا تحدها حدود . . وفرق هائل بين قدرة المخلوق وقدرة الخالق . . والحياة الدنيا فيها مباهج محدودة . . إذا أسرف فيها الإنسان هلكت صحته . . ولم يستطع التمتع بها . . فالذى يفرط فى الطعام علاجه الحرمان من الطعام . . والذى يفرط فى أى لذة أخرى دنيوية حرمه الله منها . . ويجعله غير قادر عليها . . أما الحياة الآخرة . . ففيها ما لا عين رأت . . ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . .

هنا فى هذه الحكمة أساس إيمانى . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى « **وكان أبواه مؤمنين** » . . فقد قدم الله سبحانه وتعالى حقيقة هامة قبل الحدث نفسه . . وهو أن الأبوين مؤمنان صالحان . . هذا الإيمان فى الأبوين يجعلهما إذا خيرا بين ابن يضيع هذا الإيمان . . وبين لا ابن على الاطلاق . . أن يختارا الحقيقة الثانية . . ولكن الله سبحانه وتعالى بهذا العمل الذى إذا نظرنا إليه بالمقاييس الدنيوية تحسبه شرا . . بهذا العمل قد حفظ إيمان الأبوين وبدلهما ابنا صالحا . . ثم أكرم الابن بأن قضى أجله وهو غلام . . ولم يتركه حتى يدخل محك التجربة ويصبح فاسدا يكتب عليه العذاب فى الآخرة . وكما قلت لو خيرت أبوين مؤمنين بين قضاء الله . . وبين ما كان سيحدث لاختارا قضاء الله سبحانه وتعالى . . واعتبراه رحمة منه وفضلا . . ولكن الذى يجب ألا يغيب عنا فى هذه الحقيقة هو إيمان الأبوين أولا . . فالإيمان هنا هو أساس هذا الاختيار . .

العمل الصالح .. لا يذهب

وننتقل بعد ذلك إلى الحقيقة الثالثة .. وهى القرية التى استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما .. اثنان غريبان دخلا إلى قرية وهما فى حالة جوع شديد .. أبسط الأشياء أن القوم الكرام .. إذا دخل غريب القرية أطعموه ولو لم يكن جائعا .. أو على الأقل عرضوا عليه الطعام .. إذا كان جائعا وجب عليهم إطعامه .. ولكن أهل هذه القرية التى دخلها موسى والعبد الصالح قابلوهما بلؤم ونذالة .. ذلك أن موسى والعبد الصالح كانا جائعين وغريبين .. وطلبا الطعام من أهل القرية .. ولم يطلبا طعاما فاخرا .. أو مائدة تحوى عشرات الأصناف .. ولكنهما طلبا لقمة تقيم أودهما وتسكت جوعهما .. فماذا فعل أهل القرية .. أبوا .. رفضوا أن يعطوهما حتى هذه اللقمة الصغيرة .. وإذا بالعبد الصالح يجد جدارا متهدما فى القرية فيبنيه ويجمله ويجدده .. ولم يطق موسى صبرا .. هؤلاء الناس رفضوا اعطاءنا لقمة ونحن جائعان .. وأنت تقوم بهذا العمل لهم مجانا .. تقدم لهم خدمة .. تبنى لهم جدارا متهدما .. جزاء على هذا اللؤم .. وهذه النذالة .. وتأتى الحقيقة المستورة لتبين لموسى عليه السلام الحكمة من بناء هذا الجدار .. فهذا الجدار لم يكن خيرا لأهل القرية الذين تخلوا عن كل مبادىء الشهامة .. بل كان خيرا لأولاد رجل صالح يخشى عليهم من أهل هذه القرية الذين لا يرعون عهدا ولا يطعمون جائعا .. ولأنهم يفعلون ذلك لا يطعمون الجائع .. ولا ينفقون شيئا فى سبيل الله .. فقد منع الله سبحانه وتعالى عنهم الخير .. وأبقاه لأولاد رجل كان صالحا وتوفاه الله .. ذلك أن العمل الصالح للأب يبقى لأولاده فى الدنيا وينفعهم .

وهنا يحدث الفراق بين موسى والرجل الصالح .. ولكن بعد أن يبين لنا الحكمة فيما حدث .. والحكمة هنا تختلف عن الحادثتين السابقتين ..

فكانت الحادثتان السابقتان فى ظاهرهما شر .. وفى حقيقتهما خير .. حادث خرق السفينة أنقذها من الملك الظالم الذى كان سيغتصبها .. وقتل الغلام حفظ لأبويه صلاحهما .. وعوضهما الله سبحانه وتعالى عنه بولد صالح .. أما هنا فالظاهر لأهل القرية أن هذا الرجل الصالح قد قدم عملا خيرا طيبا لهم بأنه وجد جدارا قديما يكاد يتهدم فبناه .. ولكن الحقيقة غير ذلك تماما .. اتضح أنه حدث لمنع الخير عنهم .. فالجدار المتهدم كان تحته كنز .. وهذا الكنز كان لغلامين يتيمين فى المدينة .. وكان أبوهما صالحا .. إذن فصلاح الأب ينعكس

على الأبناء . . والأب الصالح يهيىء الله لأبنائه سبل الرزق فى الحياة . . بالعمل الصالح . .

والسؤال هنا . . وهل كان الكنز سيبقى لهذين الغلامين ؟ . . أبدا . . ذلك أن أهل هذه القرية وأخلاقهم عدم اطعام الضيف الجائع . . كانوا سينقضون على الكنز ويأخذونه . . ولا يعطون الغلامين شيئا . . فالله سبحانه وتعالى بسبب أن هذه هى أخلاق أهل القرية . . منع عنهم هذا الخير . . أو الكنز . . وفى نفس الوقت بسبب صلاح أبى الغلامين . . حفظ للغلامين كنزهما .

هذه هى الحكمة المستورة . . ولكن ما هو الظاهر أمام أهل القرية . . ان غريبين دخلاها جائعين فرفضوا اطعامهما . . فإذا بهذين الغريبين أو أحدهما يجد جدارا متهدما . . فيبنيه ويجمله ويزينه . .

لو أنك كنت تعيش فى هذه القرية . . ورأيت هذا الحادث . . لقلت سبحان الله . . قوم لئام يرفضون اطعام الجائع الغريب . . ويرفضون العمل بما أمر به الله من إطعام مسكين . . ومن إكرام الغريب يرفضون أن يقدموا لقمة واحدة لرجلين جائعين . . ثم يأتى أحد الرجلين فيقيم جدارا جميلا فى القرية . . ثم كنت تنظر إلى السماء . . وتقول يا ربى . . ما هذا . . هؤلاء الناس أشرار . . وقاموا بعمل شرير . . عمل لا ترضى عنه . . سبحانك وتعاليت . . وهو اطعام الجائع الغريب . . ثم ترسل إليهم من يجمل لهم القرية . . ويقيم فيها جدارا متهدما . . ويعمر فيها . . كيف تجازى يا ربى هؤلاء اللئام بهذا الخير . .

وكنت تتعجب كيف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لقوم هم أبعد ما يكونون عن طاعته من يزين لهم قريتهم ويجملها . . وهذا هو الذى جعل موسى لا يطيق صبرا . . ولكن عندما انكشفت الحقيقة عن المستور فى علمه . . تبين أن ما حدث لأهل هذه القرية لم يكن خيرا . . بل كان منعا للخير . . رغم أن ظاهره أمام من لا يعلم خير . . ولكن حقيقته عكس ذلك تماما . .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى قد ساق لنا هذه الأمثلة فى سورة الكهف . . ليقول لنا لا تحكموا بالمقاييس الدنيوية . . فعندى أنا العلم . . ولا تحكموا بالظاهر أمامكم . . وأنا أعلم أن صدركم يضيق بما يحدث . . وأنكم لا تستطيعون الصبر . . وأنكم تتعجبون من أشياء كثيرة حين تجدون شرا . . يحدث لأناس طيبين صالحين . . وخيرا يحدث لأناس يعصون الله . . ذلك ليس المقياس . . لأن ما أمامكم هو الظاهر . . وما عندى هو الحقيقة . . والظاهر

أمامكم قد يكون عكس الحقيقة تماما .. وما تحسبونه شرا .. قد يكون خيرا .. وخيرا عميما .. وما تحسبونه خيرا قد يكون شرا .. أو منعا للخير.

كهوف الحياة

ولقد ساق الله سبحانه وتعالى هذه الأمثلة ليبين أن هناك كهوفا فى هذه الحياة .. توارى الحقائق عنا .. وأن على الإنسان ألا يغتر بظواهر الأشياء .. وأن يعلم أن هناك حقائق مخفية .. وليعلم كل إنسان أن كل قدر قد يقع عليه ليس له فيه اختيار .. فيه حكمة .. والحكمة ليست دائما ظاهرة .. ومن هنا فعلينا ألا نحكم نحن بعلمنا فيما يحدث لنا من أقدار .. وأن نتقبل الأشياء بلا انزعاج من شر نحسبه حدث .. ولا فرح شديد من خير نحسبه تم .. والله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم .. وقد نكره شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وقد نفرح لأشياء ثم بعد ذلك نتمنى لو لم تحدث .. هذه حكمة .. يريد أن يبينها الله لنا سبحانه وتعالى حتى نتحمل الحياة .. ونحن نؤمن أن قدر الله سبحانه وتعالى هو ما نرضى به وأن ما يقسمه الله سبحانه وتعالى هو الخير لنا .. وهذا كما قلت فى القدر الذى يقع علينا .. ولا يكون لنا اختيار فيه ..

ونعود فى ختام الحديث عن سورة الكهف إلى قصة ذى القرنين .. فيقول سبحانه وتعالى **« ويسألونك عن ذى القرنين .. قل سأتلو عليكم منه ذكرا »** وهنا يحاول بعض الناس أن يخرج بالصورة عن هدفها إلى فرع لا يفيدنا .. وليس مطلوبا منا أن نبحث عنه .. فبدلا من أن يتأمل ما قاله الله سبحانه وتعالى عن ذى القرنين .. يدخل فى جدل حول من هو ذو القرنين .. ومتى عاش .. وفى أى بلد كان .. إلى آخر هذا الكلام ..

والقصص فى القرآن ليس مقصودا بها تحديد أو تشخيص أعلام القصة .. ليس مطلوبا منا أن نترك الحكمة من الآية .. وندخل فى جدل حول من هو ذو القرنين .. فذو القرنين موجود فى كل عصر .. بأسماء مختلفة ..

القـرآن .. والحقيقـة

نعود مرة أخرى إلى قصة ذى القرنين .. ولا نريد ولن ندخل فى تعريف من هو ذو القرنين .. وإنما نتحدث عن الحكمة فيما رواه الله سبحانه وتعالى ..

ذو القرنين رجل مكن الله له فى الأرض .. أى أعطاه الملك .. وأتاه الله

سبحانه وتعالى من كل شيء سببا . . أى أعطاه الأسباب التى تمكنه من أن يفعل ما يريد . .

ماذا فعل ذو القرنين عندما أعطاه الله الأسباب من عنده . . لم يكتف بذلك . . بل اتبعها بأسباب من فعله . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا إنه إذا مكننا فى الأرض بأسباب من عنده . . لابد أن نضيف إليها أسبابا أخرى . . ولا نكتفى بذلك . . وهذا ينفى قضية التواكل والتكاسل عن العمل . . فإذا مكننى الله بأن أعطانى أرضا . . فيجب أن أضيف إليها بأن أزرع هذه الأرض لتنتج الثمار . . فإذا تركت الأرض بورا . . لا أضيف إليها عملا من عندى . . وإنما أخذت أسباب الله دون أن أضيف إليها سببا . . فأنا لا أعمل بشريعة الله فى الأرض . .

وإذا مكننى الله سبحانه وتعالى من مال . . فيجب أن أستخدمه فيما ينفع الناس ويفتح أبواب الرزق لهم . . ويعمر فى الأرض . . ولا أكتفى بأن أضعه فى خزائنى . . وأغلق عليه الباب . . وأنفق منه على حاجاتى . . أى أن الله سبحانه وتعالى إذا أعطانى أسباب المال . . فيجب أن أضيف إليها من عندى . . وهكذا فى كل أمور الدنيا . . إذا مكننى الله سبحانه وتعالى من أى شيء . . فيجب أن أضيف له من عندى فيبارك فيه الله . . ويزيده . . وألا أكتفى بما مكننى الله فيه . . فإذا مكننى الله من علم مثلا . . فيجب أن أنشره لينتفع به الناس . . إلى آخر هذا . .

ثم تمضى الآية الكريمة :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

وهكذا خيره الله سبحانه وتعالى بعد أن مكن له فى أن يواجه هؤلاء الناس : المخطىء بالعذاب . . والمحسن بالحسنى . .

كما روى الله لنا فى القرآن الكريم . . « **أما من ظلم فسوف نعذبه** » . . لماذا ؟ لم يقل ياربى . . أما من ظلم فسوف أتركه ليعذب فى الآخرة . . لأن

قوانين الحياة .. وهذه نقطة هامة جدا .. تقتضى الحساب أولا ليستقيم كل شىء .. وحياة دنيوية بلا حساب تنتهى إلى نوع من الفوضى ..

فالدنيا فيها المؤمن والكافر .. وفيها المحسن والمسىء .. أساس الحياة الدنيا أن يكون الحساب قبل الثواب .. هناك قواعد وضعها الله للحياة الكريمة فى الأرض .. إنسان غير مؤمن سرق .. لابد أن يحاسب فى الدنيا .. إنسان غير مؤمن خرج عن أى حد من حدود الله لابد أن يحاسب .. ولكن ذلك لا يمضى على حدود الله وحدها .. فإذا أردنا أن تمضى الحياة بشكل مستقيم يضمن انتظام العمل .. وتحمل المسئولية .. فيجب أن يكون هناك حساب أولا لمن يخطىء ..

وهنا يجب أن نتنبه إلى هذه الآية جيدا .. لماذا قدم الله سبحانه وتعالى قوله وهو يروى لنا قصة ذى القرنين .. « **أما من ظلم فسوف نعذبه** » .. ثم جاء بعد ذلك قوله « **وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى** » .. ذلك أن المحاسبة أو الحساب يجب أن تسبق أية مكافأة .. أو ما نسميه نحن بلغتنا حوافز أو مكافآت تشجيعية .. أو ما نطلق عليه نحن جزاء دنيويا .. أو ماديا .. فإذا أخذنا أى عمل من الأعمال فى الدنيا كلها .. وبدأنا لا نحاسب المهمل .. ونجزل العطاء لمن يحسن العمل .. فإن ذلك العمل لا يستقيم أبدا مهما كان العطاء الذى نعطيه .. بل ان الأساس أن تأتى المحاسبة أولا .. ثم بعد ذلك .. وبعد أن يمضى العمل على أساس سليم .. ويؤتى ثماره ويزيد .. يأتى التشجيع .. واجزال العطاء ..

الظالم .. لنفسه

على أننا يجب أن نتنبه هنا إلى نقطة هامة جدا .. هى أنه من يظلم فى الأرض له حسابان .. عقاب الدنيا .. وعقاب الآخرة .. والظلم هنا لكى نعرف دقة التعبير فى القرآن الكريم .. نوعان .. إنسان يظلم نفسه .. وإنسان يظلم غيره .. وكلاهما له حساب .. فالإنسان الذى يظلم نفسه هو الذى يوردها مورد الهلاك فى الآخرة .. بألا يؤدى فروض الله .. وقد يكفر بالله ونعمه .. قد لا يحسن وهو يملك المال الكثير .. ولا يؤدى الصلاة .. ويقوم بالايذاء حبا فى الايذاء .. ودون أن ينال جزاء دنيويا .. ومن هؤلاء كثيرون .. كالذى يرسل خطابات مجهولة بتهم كاذبة .. ضد زملائه أو مرءوسيه أو جيرانه .. أو

كالذى يشهد شهادة الزور ابتغاء الأذى .. ودون أن يكون له جزاء يحصل عليه .. هذا الإنسان يظلم نفسه بأنه يوردها مورد التهلكة .. وفى نفس الوقت لا يعطيها جزاء الدنيا العاجل الذى قد تستفيد منه النفس الظالمة .. والنوع الآخر من الناس هو الذى يظلم نفسه ويظلم غيره .. كالذى يسرق مال غيره .. أو يزور ليحصل على مال حرام .. أو لذة عاجلة .. ذلك الإنسان قد باع الدنيا بالآخرة .. أعطى نفسه ما هو زائل .. وسلبها مما هو دائم وخالد ..

العذاب هنا يكون على شقين .. الشق الأول هو الشق الظاهر .. كأن يضبط إنسان إنسانا وهو يسرق المال .. أو يأخذ حقوق الإنسان بالظلم .. وهذا يجب أن ينال عقابه .. الشق الثانى .. إنسان يفعل فى الخفاء ما نهى الله عنه .. ولا يعبد الله .. وهذا يرد إلى ربه .. فيعذبه عذابا نكرا ..

إذن .. الله سبحانه وتعالى حدد لنا مهمة كل من يمكنه الله سبحانه وتعالى فى الأرض .. ومهمته أن يقف ومعه ميزان يزن به حركة الحياة .. حتى تستقيم هذهُ الحركة .. واستقامة حركة الحياة أساسها أن الظالم يعاقب .. ولا نقول إنه يترك لله ليعاقبه .. فلابد أن تكون هناك عقوبة دنيوية ردعا لمن لا يؤمن بالله .. أو لمن نسى الله .. وهذا لا يعفيه من عقاب الله ..

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

ولكننا نقف عند هذه الآية الكريمة ونقول : ولماذا لم تكمل بأن هذا الإنسان يرد إلى ربه فيدخله جنات النعيم .. وهنا حكمة بالغة .. هى أن الإيمان هو بين العبد وربه .. والله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعرف من المؤمن حقيقة .. ومن الذى يتظاهر بالإيمان .. بينما يفعل فى الخفاء ما ينهى عنه الله .. ومن هنا فنحن مهما أوتينا من مقاييس الدنيا .. لا يمكن أن نفرق بين مدعى الإيمان .. والمؤمن حقيقة .. ولذلك فأمر هؤلاء متروك لله سبحانه وتعالى الذى يعرف ما تخفيه الأنفس وما تكتمه الصدور .. وهو يعلم الذى يعمل عملا يبتغى به مرضاة الله .. والذى يعمل عملا ظاهره الخير .. وباطنه طلب الجاه فى

الدنيا .. ومن هنا فإن الأمر متروك لله سبحانه وتعالى .. ما كان مخفيا فى الصدور .. فينال المؤمن الحقيقى الجزاء .. أما الذى آمن رياء أو نفاقا .. أو ابتغاء سمعة .. أو ابتغاء لجاه دنيوى .. فأمره إلى الله .. وهو الذى يحكم ..

وتمضى الآية الكريمة لتقول :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

وقد تحدثت عن ذلك فى أول هذا الفصل وبينت أن معنى الآية الكريمة « لم نجعل لهم من دونها سترا » .. ان الاسكندر قد وصل إلى مناطق فى الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة .. أى أنه لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقى أجزاء الكرة الأرضية .. بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام .. وإذا بحثنا الآن نجد أن هناك مناطق فى العالم لا تغيب عنها الشمس ٦ شهور فى العام .. فالشمس لا تغيب عن القطب الشمالى مدة ٦ شهور .. وعن القطب الجنوبى مدة ٦ شهور .. فكأن الله تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن فى الأرض .. لا تخضع لقواعد تعاقب الليل والنهار كالتى تخضع لها باقى أجزاء الأرض .. وإنما تشرق الشمس عليها دون أن يسترها الظلام لفترة طويلة ..

المال .. وما أعطاه الله

ثم ننتقل بعد ذلك إلى ذى القرنين عندما بلغ ما بين السدين .. فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

وتمضى الآية الكريمة فيقول ذو القرنين وهم يعرضون عليه المال :

﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

وهنا نصل إلى قانونين من قوانين الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا بهما .. القانون الأول .. قول ذى القرنين ما مكنى فيه ربى خير .. وهذا دليل قوى على أن الرجل الصالح المؤمن المصلح فى الأرض .. لا يتكالب على المال .. ولا يعمل من أجل جمع المال وكنزه .. بل إنه يعلم يقينا أن الخير الذى يعمله .. هو أبقى وأحسن من المال الذى يمكن أن يحصل عليه .. وأنه إذا أنفق ماله فى الخير .. فإنه لا يضيعه ولكنه يضاعفه .. وهذا يدلنا دلالة واضحة على أن ذا القرنين رجل صالح .. ولو أنه كان رجلا يدعى الصلاح .. ويعمل من أجل الدنيا لفرح بالمال كشىء عاجل .. ولم يفضل عليه الخير الذى هو أبقى عند الله .. والذى يضاعفه الله سبحانه وتعالى ..

أى أن الله يريد أن يقول لنا لا تفرحوا بالمال .. ولكن افرحوا بخير أسوقه إليكم لتؤدوه .. فذلك أحسن من المال وأبقى .. وهو النافع فى الدنيا وفى الآخرة .. ثم يمضى الله سبحانه وتعالى ليقول على لسان ذى القرنين « **فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما** » .. ومعنى هذه الآية الكريمة أن الله يريد أن يقول لنا أننا يجب أن نعمل لندرأ الظلم عن أنفسنا .. فإذا كان هناك أناس ظالمون مفسدون فى الأرض .. فإننا يجب أن يكون بعضنا عونا لبعض فى درء هذا الخطر أو هذا الظلم الذى يهددنا .. وأننا فى حياتنا الدنيوية يجب أن نستخدم الامكانيات العقلية التى أعطاها الله لنا لندرأ عن أنفسنا كل ما هو شر .. ونأتى أو نعمل لما هو خير .. الله سبحانه وتعالى قد أعطانا نعمة العقل .. لا لنضيعها فى الجدل عن غيبيات لا نعلم عنها شيئا .. ولا لنفسدها بالدخول فى أشياء لن نصل فيها إلى نتيجة .. ولا نستطيع أن نثبتها .. ولكن لتعيننا فى حياتنا الدنيوية فنستخدم عقولنا لنكتشف ما فى الأرض من أسرار وضعها الله سبحانه وتعالى .. ومن مواد خلقها الله سبحانه وتعالى .. ثم نستخدم عقولنا لنصنع من هذه المواد .. وهذه القوانين التى خلقها الله ، ما يوفر لنا درء الخطر عن أنفسنا .. وتوفير الحياة الكريمة لنا .. والله سبحانه وتعالى قد

خلق لنا العقل .. وخلق لنا ما يشغله .. وميادين نشاطه فى الأرض .. ولكن بعض الناس يحاولون استخدام العقل فيما لا ينفع الناس .. بل يضرهم .. وفى التشكيك فى الغيبيات .. وفى النهى عن سبيل الله .. وفى الافساد فى الأرض .. تلك كلها أشياء لم يجعلها الله سبحانه وتعالى من وظيفة العقل .. فالعقل البشرى له حدود .. والله سبحانه وتعالى لا تحده حدود .. ولا قيود ..

ومن هنا فإن وظيفة العقل البشرى فى أن يشتغل فيما خلق له .. وهو الأرض وما وضعه الله فيها .. والكون وما يريد الله سبحانه وتعالى أن يكشف فيه من أسرار للعقل البشرى ..

وهكذا يريدنا الله سبحانه وتعالى أن نستخدم عقولنا فى حياتنا الدنيوية .. ولا نعطلها .. ولا نلغى تفكيرها .. وفى نفس الوقت ينهانا عن أن نهدر العقل البشرى فيما لم يخلق له .. وفيما لن يصل فيه إلى نتيجة ..

حماية .. أهل الضعف

كان أول ما فهمه ذو القرنين من هؤلاء الناس أنهم أهل ضعف .. يطلبون حمايتهم من أهل قوة وجبروت .. وهم يأجوج ومأجوج .. وأنهم مستعدون لدفع الأجر لذى القرنين مقابل أن يحميهم من هؤلاء الجبارين الذين يفسدون فى الأرض .. فيقتلون أولادهم ويأخذون مالهم .. إلى آخر ما كان يحدث .. وهؤلاء أناس ضعفاء لا حول لهم ولا قوة .. ولم تمكنهم عقولهم من أن يجدوا الطريقة ليحموا بها أنفسهم من هذا الجبروت .

وهنا قال ذو القرنين .. أن ما مكنى فيه ربى خير .. ما معنى هذا القول الكريم ؟.. معناه أن ذا القرنين أوتى من العلم .. بحيث عرف أن الخير فى الدنيا أفضل من المال .. لأن المال يأتى ويذهب .. أما الخير فيبقى إلى الأبد .. العمل الذى يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى هو أحسن ما يمكن أن يكسبه الإنسان .. لماذا ؟.. لأنه باق خالد .. يذهب السيئات .. ويقرب من الله .. ويبقى خالدا للإنسان فى آخرته يزيد ولا ينقص .. والعمل الصالح الذى يؤتيه الرجل المؤمن .. قاصدا به وجه الله سبحانه وتعالى .. يجعله ممن ينطبق قول الله تعالى عليهم ..

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

ويجعله ممن ينطبق عليهم قول الله تعالى « ان الله يدافع عن الذين آمنوا » . . ويجعله ممن ينطبق عليهم قول الله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » . . ومن هنا فإننا نرى أن عمل الخير جزاؤه فى الدنيا دعوة مجابة من الله سبحانه وتعالى بما تشتهيه نفس المؤمن . . وأن يكون الله سبحانه وتعالى هو المدافع عنه الذى يقف أمام أى إنسان يحاول أن يؤذيه . . فيحبط كيده . . ويضعف سلطانه . . ويجعل الأذى لا يصل إلى المؤمن أبدا . . لأن المدافع عنه هو الله سبحانه وتعالى . . ومن يستطيع أن يؤذى من كان الذى يدافع عنه هو الله ذو القوة المتين . . ثم أن هذا الخير الذى يقرب من الله . . يجعل الله سبحانه وتعالى يوجد له من كل ضيق فرجا . . ومن كل أزمة مخرجا . . من حيث لا يدرى ولا يحتسب . . هذا بخلاف أنه إذا ضاقت به أسباب الرزق . . فإن الله يفتح له من هذه الأسباب أبوابا لم يكن يفكر فيها . . أو يصل إليها فكره أو علمه . . هذا فى الدنيا . . بجانب جزاء الآخرة . . وهو الفوز العظيم . . وهو الجنة . .

إذا كان هذا هو جزاء الخير . . وإذا كان ذو القرنين على يقين من ربه الذى علمه الأسباب . . فهل يبيع هذا الجزاء كله . . ويتقاضى بدلا منه أجرا . . بلاشك أن قوله : « ما مكنى فيه ربى خير » . . معناه أنه على علم يقينى بأن جزاء الله عن الخير لا يمكن أن يقابله أجر . . ولو كان مال الدنيا كلها . . وهكذا اختار ذو القرنين . . وهكذا يختار كل مؤمن إيمانا حقيقيا الخير على المال . . اختار أن يحمى هؤلاء الضعفاء ، الذين لا يكادون يفقهون قولا ، من الجبارين الذين يفسدون فى الأرض . . ويأخذ بذلك أجرا من الله سبحانه وتعالى لحماية الضعيف . . ونصرته ، الذى لا حول له ولا قوة .

ولكن كيف اختار أن تتم هذه العملية . . هل قام هو ببناء السور . . أو قام هو بعمل أى نوع من الحماية لهم . . أى أدى لهم مهمة تنتهى بانتهائه . . وتغيب عنهم بغيابه . . لا . . بل اختار أن يعلمهم شيئا يعملونه هم بأنفسهم . . حتى

إذا غاب عنهم أو رحل عنهم يستطيعون أن يقوموا بهذا العمل بذاتهم .. أى أنه أضاف إليهم ما أعطاهم قوة ذاتية يستطيعون أن يحموا بها أنفسهم .. فقال « فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما » .. أى أنه أشركهم فى العمل .. وعلمهم كيف يستطيعون أن يبنوا بينهم وبين هؤلاء القوم الجبارين سدا يمنع الأذى عنهم .. أى أنه علمهم كيف يحمون أنفسهم من الظلم الذى يقع عليهم .. ونتيجة عملهم واجتهادهم استطاعوا اقامة السد بينهم وبين هؤلاء الجبارين .. وبذلك دفعوا الظلم عن أنفسهم .. وتعلموا شيئا جديدا يحميهم ..

وفى هذا حكمة .. هى أن الضعفاء مهما كان ضعفهم .. فإن الممكن فى الأرض يعلم .. ويستطيع أن يجعلهم أقوياء .. وأن يعينهم على أن ينهضوا بأنفسهم .. ويزيلوا أسباب تخلفهم وضعفهم .. بشرط أن يشتركوا جميعا فى العمل .. لتستمر الدفعة .. ويتم العمل نفسه .. فإذا اشتركوا تعلموا .. وإذا تعلموا تقدموا واستطاعوا أن يحموا أنفسهم .. وأن يضيفوا إلى ذاتيتهم أشياء لم تكن موجودة ..

وقبل أن أختم خواطرى عن سورة الكهف .. أحب أن أبين أن هذه السورة ترينا من كهوف الحياة ما يجعلنا نفهم كثيرا .. فالفهم الأول أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى .. وأنه لا شىء يتم إلا بارادة الله .. ومن هنا فإن الإنسان يجب أن يرجع كل شىء إلى الله سبحانه وتعالى فلا يقول سأفعل كذا .. إلا بعد أن يضيف إليها إن شاء الله .. لأن الذى يملك عناصر الفعل المستقبلى هو الله سبحانه وتعالى .. وثانى هذه الأشياء هو نظرة الإنسان إلى الأسباب .. فالإنسان إذا رزقه الله بمال أو بأرض .. أو فضله على غيره فى الرزق .. فيجب أن يعرف يقينا أن الفضل فى ذلك هو لله سبحانه وتعالى .. وألا يغتر بنفسه ويقول إنما أوتيته على علم عندى .. ذلك أن الغرور هو بداية عبادة النفس .. وبداية عبادة النفس تبعد عن عبادة الله .. فالله الذى أعطى يستطيع دائما .. ودائما أبدا أن يأخذ .. والله الذى وفق يستطيع دائما ودائما أبدا أن يحجب هذا التوفيق .. و من هنا فإن من المهلكات فى الدنيا أن يعتقد الإنسان أنه يستطيع أن يصنع قدره ، وأنه بذكائه يستطيع أن يفعل كذا وكذا .. ولكنه يستطيع فعلا

أن يفعل .. وأن ينجز بتوفيق الله له .. ذلك التوفيق الذى هو أساسه نجاح العمل .. والذى لولاه لفشل كل شيء .. العمل نفسه مطلوب وواجب .. ولكن الغرور ليس واجبا .. بل أنا أعمل .. والله يوفق ويبارك .. ويرزق ..

والحكمة الثالثة أن ظاهر الأشياء ليس هو حقيقتها .. الخير والشر لا يمكن أن يحكم عليهما إنسان من ظاهر الأمور .. ومن هنا فإننا لا يجب أن نضع من أنفسنا حكما على ما يحدث .. ونتقبل قضاء الله دون أن نبكى حزنا اعتقادا منا أنه شر .. أو نطير فرحا لأننا نحسب أنه خير .. فحقيقة الخير والشر لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .. يجب أن نتقبل قضاء الله دائما بالرضا .. وبأن هناك حكمة مستورة .. ومادمنا مؤمنين .. فإن الله لا يضيع مؤمنا .. ولقد ساق الله لنا سبحانه وتعالى من خلال قصة موسى والعبد الصالح أمثلة عديدة على ذلك ..

رابعا .. أن هناك أمورا قدرية تقع على الإنسان بدون حركة منه .. ولا دخل له فيها .. وأن هذه الأمور لا تحدث عشوائيا .. ولا تتم هكذا .. بل هناك وراءها دائما مدبر هو الله سبحانه وتعالى .. وهى وان كانت فى بعض الأحيان تبدو بعيدة عن ادراك عقولنا .. فيجب أن نفهم أن كل قدر فى الكون له سبب يعلمه الله سبحانه .. وتعالى الذى يسبب الأسباب ..

وأن القضاء الذى يجرى على الإنسان من الله سبحانه وتعالى هو قضاء مرسوم .. وإن بدا لنا فى كثير من الأحيان كأمر عادى .. كذلك الذى خرق السفينة وأقام الجدار لا أحد يستطيع أن يفهم سر هذا القدر إلا بعد أن بينه الله سبحانه وتعالى لنا ..

وأخيرا فإننا مهما كنا مستضعفين فى الأرض .. نستطيع أن نتعلم من أولئك الذين مكنهم الله بأسباب العلم .. أو أعطاها لهم .. وأن نضيف إلى هذا العلم عملا يبارك لنا فيه الله ..

وأخيرا فإن علينا أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى حين يمكننا من الخير .. ومن عمل الخير .. إنما يمكننا من أحسن عمل يمكن أن نقوم به فى الجزاء وفى الثواب .. فى الدنيا والآخرة .. وأن الذى يرضى عنه الله سبحانه وتعالى ليس هو الذى يمكنه من المال أو الجاه أو من النفوذ .. ولكنه ذلك الذى يمكنه من عمل الخير .

الفصل الخامس

عتاب النبي في القرآن الكريم

بعض المستشرقين الذين لا يحلو لهم إلا الطعن فى هذا الدين . . ومحاولة أخذ الأشياء وتأويل معناها بالتأويل غير السليم . . يحاولون التشكيك فى هذا الدين فيما يحويه القرآن الكريم من عبارات يعاتب فيها الله سبحانه وتعالى نبيه . . ويتخذون من هذه المواقف ذريعة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن على صواب فى أشياء قام بها . . وهم يستخدمون من القرآن الكريم الآيات مثل :

« واستغفر لذنبك » . .

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

(الآية ٧٤ سورة الإسراء)

وقول الله سبحانه وتعالى معاتبا النبى بعد أن أخذ أسرى فى غزوة بدر ، وجعل فداءهم من الأسر تعليم المسلمين القراءة والكتابة .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾

(الآية ٦٧ سورة الأنفال)

وما قيل عن بكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية . . إلى آخر الآيات التى يعاتب الله سبحانه وتعالى رسوله فيها . . والتى يستخدمها أولئك الذين يريدون الطعن فى هذا الدين كوسيلة للتخطيء واظهار أن النبى لم يكن على صواب .

وقبل أن أبدأ الحديث عن كل هذه الآيات ومغزاها ومعناها . . فإن لنا وقفة مع الذين يستخدمون هذه الآيات . . هى أنهم يثبتون بما لا يدع مجالا للشك أن القرآن الكريم منزل من عند الله سبحانه وتعالى . . وأنه لم يحدث فيه تبديل ولا تغيير حتى وصل إليهم . . فلو حدث فيه تبديل أو تغيير . . لحذفت منه

الآيات التى تتضمن عتابا من الله لرسوله . . أو على الأقل حرفت . . ولكن كون القرآن قد جاءنا . . وفيه هذه الآيات مع ما يمكن استغلاله فيها . . وكونها لم تتغير . . ولم تتبدل . . فهى دليل على أن القرآن قد وصلنا كما أنزله الله سبحانه وتعالى . . تأكيدا للآية الكريمة :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

وكون هذه الآيات نزلت فى القرآن الكريم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكان رسول الله يتلقى القرآن من الوحى ويبلغه للمؤمنين . . ومن هنا فإنه صلى الله عليه وسلم لو لم يكن أمينا فى ابلاغ الرسالة . . لأخفى هذه الآيات . . وما كان أحد من البشر يستطيع أن يعرف إذا كانت قد أنزلت . . أم لا . . ولو أن هذا القرآن كلام بشر ما كان يحوى عتابا لرسول الله . . فالبشر من عادتهم لا يتقبلون النقد . . ويدعون الكمال . . وما من منهج بشرى يلوم فيه صاحبه نفسه أو يعاتبها . . بل كل منهج وضعه بشر يحاول أن يوهم الناس بأن هذا هو الكمال المطلق . .

ومن هنا فكون هذه الآيات قد نزلت دليل على أن القرآن الكريم من عند الله سبحانه وتعالى . . وليس كلام بشر . . وكون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قام بإبلاغ هذه الآيات دليل على أنه أمين فى ابلاغ الرسالة التى كلفه الله سبحانه وتعالى بها . . لم يخف منها حرفا واحدا . . وكونها موجودة فى القرآن حتى الآن رغم مرور أكثر من ١٤٠٠ سنة على نزوله . . دليل على أن كلام الله قد وصلنا كما أنزل بلا تحريف . . ولا تبديل . تلك حقيقة هامة يجب أن نذكرها قبل أن نبدأ الحديث فى الموضوع . . ذلك أن الذين أرادوا أن يهدموا هذا الدين إنما قد ثبتوه وأثبتوا أن هذا القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى وأن نبيه كان أمينا فى ابلاغ رسالته . . وأن القرآن الكريم قد وصل إلينا كما أنزله الله . .

نأتى بعد ذلك إلى الحديث عن الآيات التى فيها عتاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله . . وقبل أن نبدأ أحب أن أجيب على سؤال حول هذا الموضوع . . وهو التشكيك فى القرآن الكريم ذلك أن ما يقوله بعض المستشرقين من أن سورة

التوبة هى السورة الوحيدة فى القرآن الكريم التى لا تبدأ بـ « **بسم الله الرحمن الرحيم** » .. ويفسرون ذلك بأن محمدا عليه السلام قد نسى لأنه كلام بشر .. ولكننى أقول لهم إن سورة التوبة هى السورة التى ذكر الله فيها سبحانه وتعالى أولئك المطرودين من رحمته ومن هنا فلا يمكن أن تبدأ بالرحمة .. وبسم الله الرحمن الرحيم .. لأن الله سبحانه وتعالى قد حجب الرحمة عن هؤلاء الذين تناولتهم هذه السورة الكريمة والتى يبدؤها الله سبحانه وتعالى بقوله :

« **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** »

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« **أن الله برىء من المشركين ورسوله** »

ثم يقول :

« **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** »

ثم يقول :

« **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد** »

ثم يقول :

« **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله** »

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم

بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(الآية ١٢ سورة التوبة)

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وتمضي السورة الكريمة لتؤكد أن الله لا يهدى القوم الظالمين فيقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الآية ٣٢ سورة التوبة)

هؤلاء الذين ذكرهم الله فى هذه السورة . . ولقد حرصت على أن أورد جزءا كبيرا منها . . هؤلاء مطرودون من رحمة الله فكيف تبدأ السورة الكريمة بالرحمة وهى تخبرنا بالمطرودين من رحمة الله الخالدين فى عذابه . . إذن محمد صلى الله عليه وسلم لم ينس . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن تبدأ هذه الآية دون ذكر رحمته لأنها عن المطرودين من رحمة الله الذين لا نجاة لهم من عذابه .

نعود إلى موضوعنا الأساسى بعد هذا التفسير الذى كان لابد منه للرد على المستشرقين لنتحدث عن عتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم . .

الله عاتب رسوله فى القرآن وقال :

« واستغفر لذنبك »

ثم قال الله سبحانه فى سورة الفتح :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾

كيف يكون الغفران لما تقدم وما تأخر وفى نفس الوقت يقول الله سبحانه وتعالى **« واستغفر لذنبك »** . . وما الذنب الذى ارتكبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

إذا بدأنا الحديث عن معظم آيات العتاب . . فهى عتاب على رسول الله فى الاسراف فى الدعوة وتحميل نفسه فوق ما يطيق وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة طه :

« طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى »

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »

ويقول الله سبحانه وتعالى لرسوله :

« لم تحرم ما أحل الله لك »

ويقول الله سبحانه وتعالى :

« قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون »

ويقول الحق لنبيه :

« فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك »

ويقول سبحانه وتعالى لرسوله :

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات »

ويقول الحق للنبى :

« عبس وتولى أن جاءه الأعمى »

ويقول « لولا كتاب من الله سبق » . . إلى آخر هذه الآيات التى تحمل عتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول الله « لست عليهم بمصيطر » وقوله « قل لست عليكم بوكيل »

كل هذه الآيات فيها عتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكن عتاب على ماذا ؟ على أن رسول الله يحمل نفسه مالا تطيق . . ولماذا يحمل رسول الله نفسه ما لا تطيق ؟ حبا فى الله وفى دينه . . ورغبة فى أن يدخل الإيمان إلى كل نفس وفى كل قلب . . حب رسول الله لله سبحانه وتعالى واخلاصه فى دعوته وتفانيه فيها جعله يحمل نفسه مالا تطيق . . ومن هنا أراد الله سبحانه وتعالى رحمة برسوله أن يقول له « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » . . أى انك يا محمد

تحمل نفسك ما لا تطيق فى هذه الرسالة . . ونحن لم ننزل عليك هذا القرآن لتشقى نفسك به . . ذلك أن القرآن هو بلاغ للناس . . « **فمن شاء فليؤمن . . ومن شاء فليكفر** » . .

ويقول الله سبحانه وتعالى لرسوله :

« **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** »

هنا حدد الله سبحانه وتعالى الدعوة إلى دينه بعدم الاكراه . . ولذلك حكمة بالغة هى حكمة الثواب والعقاب فى افعل . . ولا تفعل . فالله سبحانه وتعالى قال افعل كذا ولا تفعل كذا . . وأبان للناس طريق الحق وطريق الباطل . . ومن هنا يقتضى عدل الله سبحانه وتعالى أن يتم الاختيار بالارادة الحرة وبلا إكراه . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى بعث رحمة للعالمين يرى ما ينتظر غير المؤمنين من عذاب عظيم . . يراه يقينا ويعرفه . . ومن هنا فهو مشفق على غير المؤمنين . . يحاول أن يبذل كل ما يستطيع . . وفوق ما يستطيع . . ليدخلهم إلى رحمة الله . . لأنه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . . وفى هذا يحمل نفسه فوق ما تطيق . .

وقبل أن نبدأ فى النقاش حول هذه الآيات هناك أمران أحب أن أتحدث عنهما . . الأمر الأول الذين يحاولون التشكيك فى الإسلام باستخدام آيات العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . إنما يحكمون على أنفسهم بأنهم مغرضون . . ذلك إنك إذا أخذت القرآن . . فيجب ألا تستشهد بجزء منه ثم تستبعد جزءا آخر . . فالآيات التى نزلت ثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة . . فالله سبحانه وتعالى قال لرسوله « **وإنك لعلى خلق عظيم** » . . وقال : « **وإنك لتهدى إلى الحق** » . . وقال : « **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** » وقال : « **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** » .

وآيات كثيرة فى القرآن الكريم أثنى فيها الله سبحانه وتعالى على رسوله . . فهل من العدل أن نتجاهل هذه الآيات ثم نأتى بالآيات التى فيها عتاب . . ونحاول أن نأخذها وحدها لنحدد علاقة الله برسوله على طريقة « **لا تقربوا**

الصلاة » ان فى هذا محاولة لطمس الحقيقة واخفائها .. واظهار الشىء بغير حقيقته .. ولكننى لن أسترسل فى هذه الناحية ..

والأمر الثانى أن مسألة العتاب على رسول الله .. كانت فى ماذا .. هناك فرق بين العتب على .. والعتب لى .. والعتب هو لون من اللوم على ما حدث .. لأن القوانين التى بينى وبينك تمنع حدوثها وهذا اللوم معناه أولا وقبل كل شىء هو وجود الود بينك وبين الشخص الذى تلومه .. ذلك لأنك لا تلوم إنسانا بينك وبينه قطيعة .. فالكافر لا يلام على ذنب يرتكبه .. لأنه ليس هناك بعد الكفر ذنب .. ومن هنا فهو لا يعاتب .. والعدو لا يلام على ما يفعل لأنك تتوقع من عدوك أى شىء .. ومن هنا فمهما فعل فإنك لن توجه إليه اللوم ..

يبقى بعد ذلك الذى بينك وبينه ود .. وعلى قدر الود يكون اللوم .. فإذا كان الود عظيما .. كان هناك مكان للوم ولو على شىء صغير .. وإذا كان الود بسيطا لا يكون اللوم إلا على الأشياء الكبيرة .. فأنت لا تلوم رجلا تعرفه على هفوة صغيرة ارتكبها .. ولكن ان حدث هذا من أخ عزيز عليك جدا فإنك تتأثر بقدر حبك له .. وودك إليه .. ومن هنا فأنت تعاتب أخاك على ما لا تعاتب عليه صديقا .. وتعاتب صديقك على ما لا تعاتب عليه غريبا .. وبقدر الود يكون اللوم على الأشياء الصغيرة .

...

إذن هنا .. وعكس ما يريد المشككون .. هناك ود عظيم بين الله ورسوله .. وهذا الود هو الذى جعل الله يوجه إلى رسوله هذا الكلام .. ولكن يوجهه له لماذا .. هل لشىء فعله ضد قوانين الله .. أم رحمة به وخوفا عليه ..

فلنضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان .. عندى ولدان ولد مهمل فى دروسه لا يستذكر .. فأنا أوجه إليه اللوم لأنه أهمل واجبه .. وولد آخر لا يترك المذاكرة لحظة واحدة يمنع نفسه من الراحة والطعام والنوم ويظل يذاكر طوال النهار والليل فأنا أوجه إليه اللوم كذلك . أنا أعتب على الأول لأنه خالف القوانين التى يجب أن يتبعها لينجح . ولكن الثانى لم يخالف هذه القوانين فلماذا أعتب عليه .. لأنه أسرف فيها .. وحينئذ يكون العتب أو اللوم لصالحه دليلا على شدة الحب له والخوف عليه .. حينما أقول له اترك المذاكرة .. واسترح قليلا لترفه عن نفسك .. فأنا ألومه على شىء أنا أطلب منه أن يعمله .. أنا الذى طلبت منه أن يذاكر لينجح .. وكنت سألومه لو لم ينفذ كلامى .. ولكننى

ألومه الآن لأنه أسرف فى ذلك . . أى أن العتب له وليس عليه . . ورحمة به وليس عتابا على اهمال ارتكبه .

والآيات التى فيها عتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . تحمل معظمها هذا المعنى . . شيء حمل رسول الله نفسه عليه . . وهو غير محمول عليه بحكم التشريع . . شيء مباح ورسول الله قيد نفسه حتى فى المباح . . خرج من السهل إلى الصعب . . « **عبس وتولى ان جاءه الأعمى** » . . أيهما أسهل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى الهدى رجلا أعمى جاء وفى قلبه إيمان . . أم أن يتعب نفسه مع صناديد قريش الذين ملأ الكفر قلوبهم . . الأسهل طبعا أن يجلس مع ذلك الذى جاء يطلب الإيمان فيهديه إلى طريق الله . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار الطريق الأصعب . . إنه يريد أن يعز الاسلام بصناديد قريش وزعمائها . . وهنا تتدخل الارادة الالهية . . . الرسول يترك أمرا سهلا ميسرا . . وكلف نفسه بالجانب الشاق . . لماذا ؟ . . لصالح الدعوة . . هنا يقول له الله لماذا تترك السهل وتدخل الصعب . . ان الله غنى عن هؤلاء جميعا . . فيا محمد لا تضيق على نفسك وتحملها المشقة لتهدى من يرفض قلبه الهداية . . انما أنا أريد منك أن تهدى كل قلب يتشوق للإيمان ويهفو إلى الله . . وألا تأخذ الطريق الصعب وتضيق على نفسك . . وهكذا معظم آيات العتاب .

الله سبحانه وتعالى قد أخبر رسوله أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . . ولكنه يقوم الليل . . ولا ينام . . ويصلى حتى تتورم قدماه الشريفتان . . وتسأله عائشة فى عجب . . يا رسول الله ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر . . فيقول رسول الله أفلا أكون عبدا شكورا . . إذن . . ومع المغفرة التى أعطاها الله له لا يريد إلا أن يعبد الله حق عبادته . . ويأبى رسول الله أن يكون مقصرا فى مقام الشكر . . لماذا ؟

إذا نظرنا إلى الإنسان بالنسبة لربه . . وقارنا نعم الله عليه . . وما كلفه به من الطاعات . . لوجدنا أن نعم الله لا تعد ولا تحصى . . وأن المطلوبات منا لله سبحانه وتعالى محدودة وبسيطة . . وهنا يحس القلب المؤمن بعطاء الله . . وبأن الله سبحانه وتعالى لو شاء أن يكلفنا بقدر ما أعطانا من نعم . . لما كانت عبادة الليل والنهار كلها تكفى .

عتاب النبى فى القرآن الكريم

القلب المؤمن يحس أن نعم الله أكثر مما يؤدى عليها من شكر .. فيدخل فى مقام الود والاحسان .. ويقوم الليل .. ويصلى والناس نيام .. صلاة لم يكلف بها فى أصل التكليف .. يسرف فى الطاعة .. وفى المناجاة .. وفى الشكر .. وفى قراءة القرآن .. وهو فى كل هذا فى نظر نفسه مقصر .. لأن نعم الله عليه أكبر من هذا كله .. هل يكون مثل هذا الإنسان مخالفا لما أمر به الله .. أبدا .. ولكن ـ وهنا اشفاق الله سبحانه وتعالى على رسوله .. فالرسول يحمل نفسه مسئولية أولئك الذين لم يؤمنوا .. ويحاول أن يهديهم بقدر طاقته إلى الإيمان ويشقى ويحرم نفسه من متع الدنيا كلها .. يأتى الله سبحانه وتعالى .. فيقول لنبيه يا محمد ليس عليك ذنب .. ان لم يؤمنوا فلا تحمل نفسك أشياء لم يكلفك الله بها .. وكفاك أنك بلغتهم الرسالة .. وأديت الأمانة .. وأبنت لهم الطريق .

هذا هو عتاب الله لرسوله .. فهل هذا عتاب عن ذنب .. أم عتاب عن ود .. وحب .. ورحمة من الله سبحانه وتعالى .. فيقول الله لرسوله « **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** » .. ويقول « **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** » .. ويقول .. « **لم تحرم ما أحل الله لك** » .. كلها آيات تمثل حب الله لرسوله .. حبا عظيما .. ورحمة بلا حدود .. ويقول الحق تبارك وتعالى لرسوله «**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** » لقد أبلغتهم رسالة ربك فلا تجعل حبك لله وحبك لهدايتهم إلى طريقه يدخل الحسرة إلى نفسك .

هذه هى آيات العتب التى يتجلى فيها حب الله لرسوله .

بقى أن نتحدث عن آيتين يكثر حديث المستشرقين عنهما .. الآية الأولى « **واستغفر لذنبك** » .. وفى نفس المقام تكمل المعنى آية أخرى « **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا** » .. هنا فى الآيتين يطلب الله من رسوله الاستغفار .. والاستغفار معناه طلب المغفرة .. فما هو الذنب .. وما هو طلب المغفرة ..

الآية الكريمة فى سورة غافر وهى تبدأ كما يلى :

« **فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار** »

والاستغفار هنا إذا دققنا فى هذه الآية مرتبط بالتسبيح أى أن الله سبحانه وتعالى يقول :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله . . واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات »

ومن هنا فإن سياق الآية يدل دلالة واضحة على أنها كلها تتعلق بالعبادات . . وان ليس فيها ذنب يجازى عليه بالعقاب بل هى توجيه من الله سبحانه وتعالى . . بأن الاستغفار للذنوب والتسبيح بالعشى والابكار . . هى من المكملات للعبادة والطاعة والقرب من الله سبحانه وتعالى . . هنا ليس مقام لوم . . وليس مقام مؤاخذة . . ولكنه مقام زيادة القرب بالاستغفار والتسبيح . والشهادة أنه لا إله إلا الله . . والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات . . فى مقام العبادة أيضا . .

كل ما يقال عن أن هذه الآية هى فى مقام اللوم غير صحيح . . ذلك أنها فى مقام العبادة وزيادة القرب من الله سبحانه وتعالى . . والرسول كان يستغفر للمؤمنين وفى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قيل ولا أنت يا رسول الله . . قال إلا أن يتغمدنى الله برحمته) .

إذن طلب الرحمة والمغفرة من الله مطلوب من كل مؤمن مهما بلغت درجة ايمانه . . ومكمل للعمل الصالح مهما كان هذا العمل الصالح مقبولا عند الله . . أو ما يجب على أمته أن تقتدى به . . حتى ولو كان هذا العمل قد أعفاه الله منه . . والله سبحانه وتعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . . ولكنه كان يقوم الليل ويصلى حتى تتورم قدماه الشريفتان ويستغفر الله فى اليوم مائة مرة . . لماذا . . لأنه هو القدوة الذى ستتبعه الأمة المسلمة كلها .

ومن هنا فإن هذه الآية الكريمة هى فى مقام العبادة والقرب من الله وليست فى مقام اللوم كما يدعى المستشرقون الذين أخذوا جزءا منها فقط ليشوهوا به هذا الدين .

على أننى رغم ما قلت سأناقش رأيهم لأريهم أنهم على ضلال . .

وقبل أن نمضى يجب أن نحدد ما هو الاستغفار . . الاستغفار هو نوع من الايمان الذى يحس الانسان فيه بالذلة لله سبحانه وتعالى . . ومتعة المؤمن العزة

أمام غير الله .. والذلة لله .. ولا تجد إنسانا ليس فى قلبه إيمان يستغفر الله سبحانه وتعالى .. بل إنه قد يكون مستعدا لأن يذل نفسه لبشر .. وأن يرتكب فى سبيل ذلك من المعاصى ما حرمه الله .. ولكن عندما يأتى الى الاستغفار تأخذه العزة بالاثم .. ولذلك لا يستغفر الله .. ويطلب منه مغفرة الذنوب إلا قلب مؤمن بالله سبحانه وتعالى .. ذلك الذى يجد لذة الخضوع والخنوع لله .. والاعتراف بعظمة الله وقدرته فى الاستغفار وطلب المغفرة منه .

فلذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »

هذه الآية الكريمة توضح لنا معنى الاستغفار .. وكيف أنه لا يحدث إلا إذا كان الإنسان فى قلبه إيمان ومعنى الآية الكريمة أنه ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم لأننى أرسلتك رحمة للعالمين .. وحيث إن رحمتى سبقت عذابى .. لذلك فأنا لا أعذبهم وأنت فيهم الرحمة المهداة .. ثم تمضى الآية الكريمة لتشرح ماذا سيحدث بعد انتقال رسول الله إلى جوار ربه .. وهنا يكمل الله الحديث فيقول **« وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »** .. إذن بعد انتقالك يا محمد إلى جوار الله فإن الله سبحانه وتعالى لن يصيب بعذابه المستغفرين .. لماذا ..؟ لأن الاستغفار هو الخضوع والخنوع لله .. لا يوجد إلا فى قلب مؤمن .. ومادام الايمان موجودا فى القلب فرحمة الله تحيط بعبده .

وهكذا يبين الله سبحانه وتعالى لنا قيمة الاستغفار عنده .. وكيف أنه يمنع العذاب .. ويمحو الذنوب .. ويمضى الله سبحانه وتعالى فى بيان فضل الاستغفار إليه فيقول :

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما »

إذن أولى مراحل المغفرة وأهمها هى الاستغفار .. والخضوع لله .. والخشوع لله .. من أقوى علاماته الاستغفار .. والقلب غير المؤمن ليس فيه رحمة ولا فيه

مغفرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو أمته دائما للاستغفار وكان يقول : « استغفروا الله فإنى استغفره فى اليوم مائة مرة » . . فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر الله فى اليوم مائة مرة ، فكيف يكون حالنا نحن ؟!

إذن الاستغفار مرتبة من مراتب الإيمان والخشوع لله سبحانه وتعالى . . لا تدخل إلا قلب مؤمن . . ولا ينطقها بصدق إلا إنسان يخشى الله . . ولا يهرع إليها إلا من يخاف ربه ويخشى يوم الحساب . . ومن هنا فإن الاستغفار يوجد فى قلب كل مؤمن . . ويكفى أن تذهب فى يوم من الأيام إلى الكعبة الشريفة وتنظر إلى وجوه حجاج بيت الله الحرام الذين جاءوا من أقصى الأرض ليؤدوا فريضة من فرائض الله . . وتسمعهم وهم يستغفرون الله سبحانه وتعالى بكل لغات الأرض . . فيفيض الله عليهم من رحمته . . تنزل الدموع من عيونهم . . ويجهش حتى أقوى الرجال بالبكاء عندما تمس قلبه رحمة الله . . حتى ذلك الذى يمكن أن يواجه أحداث الدنيا كلها . . يأتى إلى هذه البقعة الطاهرة نادما مستغفرا من ذنبه . . ويتجشم الصعاب والمشاق ليستغفر الله . . فى مكان فضله الله سبحانه وتعالى واختاره بيتا له . . عسى أن يقبل الدعاء . . ويغفر الذنب . . وتفيض الرحمة . .

إذن الاستغفار جزء هام من الإيمان . . ومن لا يستغفر بقلبه فهو محروم من نعمة كبرى من نعم الإيمان . . فالله سبحانه وتعالى حين يأمر رسوله بالاستغفار . . والرسول قدوة لكل المسلمين وهو قدوة حسنة . . عندما يأمره بذلك فإنه من خلاله يأمرنا جميعا أن نستغفر لذنوبنا . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بالاستغفار . . فهذا أمر لنا بالاكثار من طلب المغفرة ، والغفران من الله . . لنمحو ذنوبنا ولنكون دائما خاشعين لله مدركين أنه إذا غرتنا قوتنا على ظلم الناس فلنتذكر قدرة الله علينا . . وحينئذ نهرع إلى الاستغفار . . ونرفع الظلم ونتوب إلى الله وتخشع قلوبنا .

إذن الاستغفار يحرص الله سبحانه وتعالى . . على أن يبقى بينه وبين المؤمن . . لأن فى هذا تذكيرا دائما بقدرة الله وقوته وضعف العبد وعجزه . . وفى هذا تذكير لنا بالله كلما نسينا . . وبالحساب كلما أخذتنا الدنيا بعيدا عما أمرنا الله

به .. وخضوعا وخشوعا للقدرة الكبرى والقوة الكبرى التى نعبدها وهى الله سبحانه وتعالى .. قلب مستغفر لله يخلق بينه وبين الآثام حجابا .. قلب مستغفر لله لا يمكن أن يمضى فى اثم ارتكبه أو ظلم قام به لأنه يتذكر الله .. فيستغفر .. ويعدل عن الظلم ويتوب عن الاثم .. قلب يستغفر الله لا يعذب صاحبه .. لأن الله سبحانه وتعالى قال :

« وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » .

هذه هى نعمة الاستغفار وهى نعمة لا تحس إلا فى القلب المؤمن .. ولا توجد إلا فى النفس الخاشعة .. ومن هنا يقول الله تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣ ﴾

التسبيح والاستغفار هما خشوع لله .. وخضوع لله .. وذل لله .. يعشقه القلب المؤمن .. ولذلك ارتبطت هذه الآية بالفتح .. وفى نفس الوقت لم يرتبط بالذنب .. أى أن التسبيح والاستغفار كلاهما حمد لله .. كلاهما يقربنا من الله .. وكلاهما ينقى النفس من الدنيا .. ويقربها من الجنة ..

ولكن الله سبحانه وتعالى قال لرسوله « **واستغفر لذنبك** » .. فما هو الذنب الذى اقترفه رسول الله حتى يستغفر له .. لكى نفهم هذا يجب أن نضع أمامنا الحقيقتين الآتيتين :

أولاهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين .. ومن هنا فإنه رحمة .. وأن الله سبحانه وتعالى هو القوى القادر العزيز الجبار .. الذى يمهل ولا يهمل .. فإذا أخذ كان أخذه أخذ عزيز مقتدر .. رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يحاول بقدر طاقته .. وفوق طاقته مع الكفار والمنافقين عسى الله أن يهديهم .. ويعذب نفسه من أجل ذلك ويشقى .. والله سبحانه وتعالى يقول له « **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** » .. يأتى المنافقون ويعتذرون لرسول الله عن

الجهاد فيأذن لهم . . كل بعذره . . فيأتى الله سبحانه وتعالى ويقول له **« عفا الله عنك لم أذنت لهم »** هنا الله سبحانه وتعالى يلوم رسوله على الافراط فى الرحمة . . يموت الكفار الذين عذبوا رسول الله . . والذين حاربوا دين الله . . ولكن رسول الله الذى هو رحمة مهداة يأتى فيصلى عليهم عسى الله أن يرحمهم . . فيقول له الله سبحانه وتعالى **« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا »** . . هل صلاة رسول الله ذنب . . انها افراط فى الرحمة . . واجهاد لرسول الله . . يتعب نفسه ويطلب الرحمة من الله حتى لأولئك الذين رفضوا الهداية . . بل ان رسول الله يطلب لهم المغفرة فيرد الله سبحانه وتعالى **« ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم »** . .

هنا رحمة أهداها الله إلى الأرض . . تنظر إلى السماء وتقول يارب أنا رحمة أرسلتنى إلى عبادك . . إلى خلقك . . فلترحم بى حتى أولئك الذين رفضوا الإيمان .'. حتى أولئك الذين رفضوا الهداية . . ولكن الله سبحانه وتعالى قد حرم من رحمته المشركين والظالمين والفاسقين . . ومن هنا فإن الله يرد على رسوله ويقول له يا محمد أنت رحمة للمؤمنين أنت رحمة لهذا العالم كله بأن تريهم الطريق إلى الله طريق الهداية والنور . . أن تبين لهم طريق الحياة الآمنة المطمئنة الطيبة التى رسمتها لعبادى . . وكلفتك بابلاغها لهم . . من اتبعها فله الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة . . ومن لم يؤمن بى ورفض اتباعها فسيلقانى وسيلقى جزاءه . . فلا تسرف يا محمد فى طلب الرحمة لأولئك الذين لم يؤمنوا . . ولا تستغفر لهم . . ولا تذهب نفسك عليهم حسرات فاننى أنا القوى القادر . . وسأجزيهم بما كانوا يفعلون . .

رسول الله هنا . . أتعب نفسه فى الدعوة . . والرحمة والمغفرة أكثر مما كلفه الله . . والله سبحانه وتعالى يطلب إليه أن يستغفر من ذلك . . لأن التجاوز فى هذا هو تجاوز فى أمر من أمور الله . . ولو كان هذا بالزيادة فهل يعتبر هذا ذنبا ؟ وهل يعتبر تشريع الله لرسوله إلا جزءا من الرسالة ؟ هنا الرحمة المطلقة التى تحاول أن تصل حتى إلى قلب غير المؤمن . . لأنها تعرف العذاب الذى ينتظره ولكن الله سبحانه وتعالى يرد **« ان أنت إلا نذير »** . . **« لست عليهم بمصيطر »** . . **« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا »** . . إلى آخر ما جاء فى القرآن الكريم .

هنا يأتى بعض الناس فيقول أن تجاوز رسول الله فى الدعوة وفى طلب الرحمة وفى اتعاب واجهاد نفسه للهداية لمن لا يريد الهداية يتعارض مع الآية الكريمة « **وما ينطق عن الهوى** » . . أى أنه ـ وأنا أذهب هنا مع مغالاة المستشرقين ـ حتى فى اجهاد رسول الله نفسه فى الدعوة قد نطق عن هوى فى نفسه وهو محاولة للوصول بالعاصين للإيمان رغم أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض عليه ذلك . . إذن فقد اتبع هوى فى نفسه وهو الاسراف فى الدعوة واجهاد نفسه فيها . . واشقاء نفسه بها . . رغم أن الله لم يلزمه بذلك .

أقول لهؤلاء جميعا إن معنى « **وما ينطق عن الهوى** » . . انه مادام الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى رسوله الحق . . وبين له الطريق فإن رسول الله يتبع هذا الحق ولو كانت نفسه تهوى شيئا آخر . . ومتى قال الله سبحانه وتعالى « **ولا تصل على أحد منهم مات أبدا** » فإنه بعد نزول هذه الآية وتحديد أمر الله لا يقوم رسول الله أبدا بالصلاة على أحد من الكفار قد مات ولو كانت نفسه تهوى ذلك . . وبعد نزول الآية الكريمة « **عبس وتولى أن جاءه الأعمى** »فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يترك رجلا جاء يطلب الهداية لينصرف إلى عظيم مهما كان شأنه . . أخذته العزة بالاثم ولو كانت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم تهوى أن يعز الله الإسلام بهذا الرجل العظيم فإنه لا يتبع هوى النفس أبدا ولكن يتبع ما أوحى إليه . . ومن هنا فإن الآية الكريمة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم متى أوحى إليه بأمر من الأمور ومهما كانت نفسه تهوى فإنه لا يمكن إلا أن يتبع هذا الأمر ولا يجعل النفس تميل مع هواها ضد ما أوحى إليه مهما كان .

ومن هنا فإن الآية الكريمة « **تبت يدا أبى لهب وتب** » نزلت فيمن . . فى عم رسول الله . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب له الهداية . . والوحى كما قلت كان بين الله ورسوله . . ولكن عندما نزلت الآية الكريمة تلاها رسول الله رغم أنها نزلت فى عمه وأنها تتوعده بالنار والعذاب الأليم . . وهكذا فى كل حكم من أحكام الدين لا يتبع رسول الله هوى النفس أبدا . . إنما يتبع الحق وما أنزل مهما اصطدم هذا الحق بقوة وعنف مع هوى النفس .

وننتقل بعد ذلك إلى الآية الثانية وهى قول الله تعالى :

« **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا** »

هذه الآية الكريمة يفسرها بعض المستشرقين . . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كاد يستجيب لدعوة الكفار . . الذين قالوا نعبد إلهك عاما وإلهنا عاما . . ولكن كل ما يقوله المستشرقون فى هذا الموضوع غير صحيح . . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يركن إليهم ولم تمل نفسه إلى ما يقولون ولنتأمل معنى الآية الكريمة : « **ولولا أن ثبتناك** » . . « لولا » هنا حرف امتناع أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثبت من الله . . ومن هنا فإن كل ما يأتى بعد ذلك فى هذه الآية ممتنع بحرف لو . . إذن فالله سبحانه وتعالى يقول إنك مثبت منا يا محمد . . وهذا التثبيت يمنع عنك أى انحراف عن دين الله أو خروج عنه ثم تمضى الآية الكريمة « **لقد كدت** » وكدت معناها مقاربة الفعل دون اتيانه . . أى انك لم تفعل ذلك . . وإذار أردنا المعنى اللغوى نقول قرب أن يفعل . . فالفعل منفى على الاطلاق . . بل أن القرب من الفعل منفى بكلمة لو . . ماذا كان يحدث لو لم نثبتك وتركناك لفطرتك يا محمد بدون مدد من السماء . . حتى لو لم نثبتك بفطرتك السليمة ما كنت تفعل هذا . . وإن كانت البشرية بدون امداد من السماء لأى إنسان تجعل فيه الميل إلى ذلك . . لكنك مثبت من السماء . . ومثبت بفطرتك السليمة . . إذن امتناعك عن أن تركن إليهم . . أى أن تقترب بخاطرك دون فعل مما يقولون ممتنع بتثبيتك من السماء وبفطرتك السليمة . .

ثم تمضى الآية الكريمة « **إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات** » . . وهنا لنا وقفة . . من المقصود بضعف الحياة وضعف الممات هل المقصود هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . . الممتنع عن ذلك بمدد من السماء وبفطرته السليمة مادام مدد السماء يمنعه ومادامت فطرته السليمة تمنعه . . فالآية الكريمة لا تنطبق على رسول الله ولكنها تنطبق على من يفعل ذلك . . ولكن رسول الله لم يفعله ولم يقترب منه .

ولكن هناك حكمة كريمة لورود هذه الآية . . والحكمة هنا واضحة . . الله سبحانه وتعالى يختار من عباده من يشاء . . ويعطيه من المنزلة ما يشاء . . ثم يأتى بعد ذلك اغراء الدنيا وكيد الشيطان . . الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا فى هذه الآية إنه على قدر القرب منه يكون الجزاء . . ولننظر ماذا قال الله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة :

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(الآيات من ١١٢ ، ١١٥ سورة المائدة)

الحواريون هم الذين آمنوا مع عيسى ابن مريم وهاجروا معه وجاهدوا فى المسيحية . . أرادوا أن يروا آية من آيات الله . . فاستجاب الله لدعاء رسوله عيسى ولكنه قال « **فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين** » . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى أراهم آية بينة من آياته ولذلك يكون حسابهم غير حساب من لم يره الله آية من آياته .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . انه بقدر القرب من الله يكون الحساب . . وحساب الذى يرى آية من آيات الله يكون أدق من حساب العادى . . ولذلك يأتى الله سبحانه وتعالى ليقول لنساء الرسول « **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء** » لماذا ؟ لأن قربكن من رسول الله يجعل لكن حسابا آخر وميزانا آخر . . فامتنعن عن موطن الشبهة تماما . . فالذى يدخل فى مقام الود من الله له مقاييس بقدر ما فتح الله عليه من آياته ومن فيضه .

إذن معنى الآية الكريمة التى جاءت بعد « **ولولا أن ثبتناك** » . . إنه يا محمد فلتعلم أمتك كلها . . وليعلم العالم أجمع أن من هو قريب منى . . وأكشف له عن آياتى . . ثم يعصى ويبتعد له حساب أقسى كثيرا من ذلك الذى لم أكشف له عن هذه الآيات . . وحكمة الله سبحانه وتعالى جاءت فى بداية الآية « **ولولا أن**

ثبتناك » . . ولولا حرف امتناع ومعنى ذلك أن كل ما بعدها ممتنع لوجود التثبيت من الله . .

إذن فمعنى الآية الكريمة : أنت يامحمد مثبت من السماء . . ومثبت بفطرتك السليمة . . ولكن الذى يقترف ذنبا من عامة الناس له مقياس فى الحساب . . والذى يقترف ذنبا ممن نريه آياتنا يضاعف له العذاب . . مقام الود من الله يدقق المقاييس . . وهذا واضح فى الآية الكريمة التى طلب فيها عيسى بن مريم من الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء لقد رأوا المائدة تنزل من السماء . . آية محسوسة ملموسة اختص المسيح والحواريون برؤيتها ولذلك قال تعالى . . « **فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين** » .

إذن فالآية الكريمة ليس المقصود بها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وافق على ما طلبه الكفار من أن يعبد الهمهم عاما . . ويعبدوا الله عاما . . ولكن المعنى أنك يا محمد مثبت من لدنا فهذا ممتنع عنك تماما أن تميل إليهم ولكن القرب منى وكشف آياتى لمن أريد يجعل أولئك الذين فى مقام الود والكشف من الله سبحانه وتعالى . . لهم عذاب مضاعف لأنهم رأوا ثم كفروا بعد رؤيتهم لآيات الله .

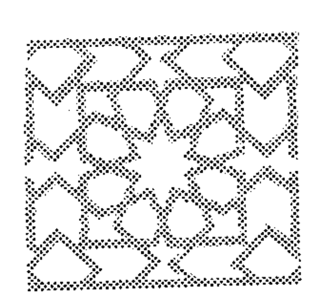
الآية ليست لوما لرسول الله ولا أخذا عليه وإلا لما ابتدأت بحرف امتناع يمنع وقوع الفعل . . ولكنها شرح لكل بشرية مؤمنة . . بأنه على قدر الود يكون الحساب . . وأن من يكفر بعد أن رأى آيات الله وعرفها فإن حسابه ليس بميزان كحساب باقى الناس . . ولكنه بميزان أدق وحساب مضاعف .

هذه هى بعض الخواطر التى أردت أن أشرحها حول عتاب الرسول فى القرآن الكريم . . فالعتاب كان على الاسراف فى الاجتهاد للدعوة . . والحزن على غير المؤمنين ومحاولة الاستغفار للكفار أو الصلاة عليهم بعد موتهم . . وفى ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رحمة للعالمين يجهد نفسه فى هذا . . ويحملها ما فوق طاقتها . . فنهاه الله عن هذا وقال له . . استغفر لهذا الاسراف الذى قمت به ولم يكن مطلوبا منك .

أما مسألة ميل رسول الله إلى الكفار وأخذ الآية الكريمة « **ولولا أن ثبتناك** » على أنها لوم للرسول فالرسول لم يمل للكفار قط . وإلا لما بدأت الآية بحرف الامتناع لولا . . ليؤكد الله سبحانه وتعالى امتناع حدوث هذا الشيء . . ثم

ليخبرنا أنه بقدر الود إلى الله والقرب منه وكشف الله لآياته لعباده يكون الحساب للذى يضعه الله فى منزلة أعلى ويريه آياته إذا كفر بعد ذلك .. يكون حسابه ضعف عامة الناس أو كما قال الله لعيسى والحواريين « **فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحد من العالمين** » .

على أن الله سبحانه وتعالى كان دائما يثبت رسوله كلما ذهبت نفسه حسرات على عدم إيمان الناس .. وعدم استجابتهم للدعوة .. واشفاقه عليهم وما سيلقونه فى الآخرة .. وفى هذا لابد من الحديث عن معجزة الاسراء والمعراج .. وهو موضوع الفصل القادم ..



الفصل السادس

معجزة الإسراء والمعراج



معجزة الاسراء والمعراج

معجزة الاسراء والمعراج تختلف عن المعجزات التى سبقتها فى المفاهيم والمعنى .. وفى جوانب كثيرة .. ولعل ما من معجزة حدثت لنبى أثارت جدلا مثل معجزة الاسراء والمعراج .. ذلك أن المعجزات السابقة كانت تخرق قوانين الكون .. وكما بينت فى الجزء الأول من كتاب معجزة القرآن أن الله سبحانه وتعالى حين خلق الكون لم يتركه هكذا عشوائيا ، بل خلق كل شيء بقانون دقيق : الأرض لها قوانين .. والشمس لها قوانين .. والنجوم لها قوانين .. والماء له قوانين .. وكل خلق من خلق الله سبحانه وتعالى له قوانين .

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الكون ويتركه لهذه القوانين بل هو قائم على خلقه إلى يوم الدين .. ومن هنا فإن الله وهو القيوم مادام قد خلق هذه القوانين ، وأوجدها ، هو وحده القادر على أن يخرق هذه القوانين لمن يشاء من عباده .. وهذه هى المعجزة .. والمعجزة تتم لتثبيت المؤمنين فى حالات إيمانية معينة ، يواجه فيها المؤمنون بالله بمحنة شديدة فتأتى إرادة الله سبحانه وتعالى لتحدث معجزة تثبت الإيمان فى القلوب .. فتنصر المؤمنين على الكافرين ..

على أن هذه المعجزات كلها معجزات مشهدية .. أى أنه يشهد حدوثها مع رسول الله عدد من المؤمنين الذين يريد الله سبحانه وتعالى أن يثبتهم .. وهنا الاختلاف بين معجزات الرسل .. ومعجزة الاسراء والمعراج .. ذلك أن المعجزات السابقة حدثت أمام جمع من المؤمنين .. وهى معجزات كونية .. أى أنها خرق لقوانين الأرض .. أما معجزة الاسراء والمعراج فقد حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده .. وخرقت له فيها قوانين السماء .. وهنا الفارق الكبير .. ذلك أن رسول الله هو البشر الوحيد الذى أسرى به الله سبحانه وتعالى بالجسد من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى .. ثم عرج به إلى السماء .. وهو البشر الوحيد الذى فتحت له أبواب السماء حتى وصل إلى سدرة المنتهى بالجسد والروح معا ..

على أن بعض الناس يجادل فى هذه النقطة .. وهى مسألة الاسراء والمعراج بالجسد أو بالروح .. وهم يقولون لماذا يصر بعض العلماء على أن معجزة الاسراء والمعراج تمت بالجسد والروح .. بينما الأقرب إلى العقل والمنطق أن تكون قد تمت بالروح وحدها .. وأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ما رأى وهو نائم .. كما يرى أى إنسان أشياء فى الحلم .. وأنه لا يجب أن يتعب

العلماء أنفسهم فى نقطة الاسراء بالجسد مادامت تصطدم مع العقل والمنطق . . والاسراء بالروح لا يقلل من قيمة المعجزة . . وإلى هؤلاء جميعا أحب أن أقول أن مسألة الاسراء بالجسد مسألة أساسية . . لماذا ؟ لأننا لا يمكن أن نطبق العقل والمنطق على قدرة الله سبحانه وتعالى . . فإذا كان الله هو الفاعل فلا نقول أن ذلك أقرب إلى العقل . . أو أبعد عن العقل . . بل هنا يتوقف حكمنا بالمنطق والعقل لأن قدرة الله سبحانه وتعالى فوق كل العقول . .

ومن هنا فإننا إذا حاولنا أن نضع قيودا لمعجزة الاسراء والمعراج . . ونقول انها أقرب إلى العقل أن تتم بالروح ، بدلا من أن تتم بالجسد إلى آخر ما نقول فى هذا الشأن . . فإننا بذلك نضع قيودا على قدرة الله سبحانه وتعالى فى أن يفعل ما يشاء . . وهنا الخطأ . . ذلك أننا حين ننقل الأمر من قدرة البشر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فلا يجب أن نقيس هذه القدرة بقدرة العقل البشرى مهما كانت . . فإذا قال لى أحدهم أنه أقرب إلى المنطق والعقل أن يتم الاسراء والمعراج بالروح . . أقول له انك تحاول أن تضع على قدرة الله قيودا من صنع عقلك . . والمخلوق لا يستطيع أن يقيد قدرة الخالق . . وفرق كبير بين قدرة الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون وقوانينه . . وبين قدرة العقل البشرى الذى أعطى امكانية اكتشاف هذه القوانين . وفهمها والانتفاع بها . . فالقانون الأرضى يخرج من علم الله إلى علم البشر كما سبق أن أوضحت . . والله سبحانه وتعالى أعطى العقل القدرة على الاستفادة بهذا القانون واستخدامه . . لماذا ؟ لأنه سخر كل ما فى السموات والأرض لخدمة الإنسان ونفعه . .

ومرة أخرى أقول . . ان المعجزات الحسية التى تتم . . هى معجزات لتثبيت الإيمان . . فى وقت يزلزل فيه المؤمنون . . فيأتيهم من السماء ما يثبتهم . . وهى معجزات تحدث فى وقتها . . وتنتهى ولا تتكرر . . من رآها صدقها . . ومن لم يرها يمكن أن يصدقها . . ويمكن ألا يصدقها . . ولو أن هذه المعجزات لم ترد فى القرآن الكريم . . ويخبرنا الله سبحانه وتعالى عنها . . لو أنها وردت فى كتب التاريخ مثلا . . لكان من الممكن أن يصدقها إنسان . . ولا يصدقها إنسان آخر . . كل حسب تفكيره وقدراته العقلية . . ولكن ورودها فى القرآن الكريم جعلها صادقة ثابتة . . يقينية . .

ولكن معجزة الاسراء والمعراج . . تختلف عن هذه المعجزات كلها . . فهى لم تقع على مشهد من المؤمنين . . تثبيتا لأيمانهم . . بل وقعت لرسول الله صلى الله عليه

وسلم وحده . . ومن هنا لم يكن الهدف منها كالمعجزات الحسية الأخرى ، تثبيتا للإيمان . . بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أبلغ الناس بها . . لم يصدقه عدد منهم . .

إذن لماذا كانت معجزة الاسراء والمعراج . . مادامت تختلف عن معجزات الرسل الأخرى فى تثبيت الإيمان . . كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم للتبليغ . . عن الله سبحانه وتعالى . . فى أهم أركان الإسلام . . وهى الصلاة . . التى فرضت من الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله علية وسلم مباشرة . . أى بلا وحى . . تعظيما لشأنها . . واجلالا لقدرها . . حيث أن الله سبحانه وتعالى قد جعلها الفرض الوحيد الذى لا يجوز لإنسان أن يتركه أبدا . . فصوم رمضان مثلا مباح تركه للمسافر والمريض . . على أن يصوم أياما أخر . . وغير القادر . . على أن يطعم مسكينا . . والزكاة مثلا ليست مفروضة إلا على من له مال . . أما من لا يملك مالا أو كان غير مستحق للصدقة مثلا . . فلا زكاة عليه . . والحج لمن استطاع إليه سبيلا . . إلا الصلاة . . فى الحرب والسلم . . وقت المعارك . . وفى ميادين القتال . . وقت المرض ووقت الصحة . . وقت القدرة على الحركة . . ووقت عدم القدرة على الحركة . . والإنسان يستطيع أن يصلى وهو نائم . . إذا كان المرض يقعده عن القيام . . وهو جالس إذا كان المرض يقعده عن السجود والركوع . . ولكن ترك الصلاة أمر لم يجعل له الله سبحانه وتعالى بديلا . . ولم يرفعه عن عباده . . ويجعل بدلا منه فداء . . وفرضه وقت السفر . . ووقت المرض . . وجعل فيه من التيسيرات ما يمكن كل إنسان من أداء الصلاة . . فى الحالة التى يكون عليها . . فأجاز الجمع بين الصلوات فى السفر . . إلى آخر ما نعرفه من أحكام الصلاة . .

إذن . . الصلاة التى هى صلة بين العبد وربه . . لا يجب أن تنقطع أبدا . . وكل وقت له ميعاد . . وله أداء . . ولعظم شأن الصلاة . . ولكونها تنهى عن الفحشاء والمنكر . . ولكونها صلة العبد بالله . . ولكونها خشوع العبد لخالقه . . فقد فرضت مباشرة من الله سبحانه وتعالى للرسول . . وفرضت فى أكرم مكان عند سدرة المنتهى . . فرضت فى مكان من الرقى . . والقرب من الله سبحانه وتعالى بحيث لا يستطيع جبريل عليه السلام أقرب الملائكة لله أن يصل إلى هذه المكانة . . بل إن جبريل عليه السلام قال لرسول الله عندما وصل إلى سدرة

المنتهى .. وطلب منه أن يتقدم .. قال جبريل لرسول الله إذا تقدمت احترقت .. وإذا تقدمت أنت اخترقت .. ومعنى ذلك أن نور الله سبحانه وتعالى فى هذا المكان بالذات لا يستطيع أن يتحمله حتى أعظم الملائكة .. المكان عظيم وجليل .. يتناسب مع جلالة ما فرضه الله سبحانه وتعالى على عبده .. ومن هنا نستطيع أن ندرك القيمة العظمى للصلاة كركن من أركان العبادة ..

على أننا قبل أن نستطرد فى هذا الحديث .. ونبين مدى اختلاف المعجزة .. فانما يقفز إلى أذهاننا عدة تساؤلات .. السؤال الأول : لماذا كان الاسراء والمعراج .. ولم يكن معراجا فقط .. أى لماذا أسرى الله برسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. ثم بعد ذلك عرج به إلى السماء ..

إن فى ذلك حكمة تقتضيها المعجزة .. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كان عليه أن يبلغ ما كلفه به ربه .. والله سبحانه وتعالى كلف رسوله .. ليس أمام جمع من الناس .. على مرأى من أحد من أمته .. ولكنه كلفه بينه وبينه .. ومن هنا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون فى هذه الحالة أمينا فى الاخبار عما أبلغه الله به .. أى أنه يكون وسيلة فى أمر يريد الله أن يعرفه لخلقه .. ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى الاسراء مقدمة للإيمان بالمعراج ..

الاسراء آية أرضية من مكة إلى بيت المقدس .. والمسافة من مكة إلى بيت المقدس فى ذلك الوقت لم تكن أمرا مستحيلا .. بل كانت القوافل تقطعها فى أيام أو أسابيع .. المهم أنه كان يتم السفر من مكة إلى بيت المقدس .. مهما اختلفت الوسيلة .. إذن المعجزة هنا فى الاسراء .. فى الزمن وحده .. معجزة الزمن هنا هى المقصودة .. فالله سبحانه وتعالى لا يحده زمن ولا مكان .. رسول الله أسرى به .. ثم صعد إلى السماء ثم عاد فى نفس الليلة .. معجزة الزمن هنا جعلت الناس لا يصدقون .. فأخبرهم رسول الله بالقوافل القادمة .. وبأشياء رآها على الأرض خلال الاسراء به من مكة إلى بيت المقدس .. والعودة .. ووصف لهم بيت المقدس .. أى أنه أعطاهم آيات أرضية حسية مشهودة على المعجزة .. وكان هذا مقصودا .. لأنه متى أعطاهم رسول الله هذه الآيات .. وهذه المعالم التى رآها فى الطريق بين بيت المقدس ومكة .. ثم بعد ذلك تأكدوا من أنها صحيحة .. فلاشك أن هذا يصبح دليلا

على أن الله سبحانه وتعالى قد خرق له القانون فصعد إلى السماء . . إذن يكون ما علموه من آيات أرضية . . أو دلائل أرضية . . دليلا على صدق ما علموه مما حدث لرسول الله حين صعد إلى السماء . .

فالاسراء معجزة ، المراد بها الدليل الأرضى . . على أن الله سبحانه وتعالى قد خرق قوانين الكون لرسوله . . وأسرى به من مكة إلى بيت المقدس فى زمن وجيز . . أو فى لا زمن . . ويكون فى هذه الحالة قد تأكد لهم أن الله قد خرق قوانين الأرض لرسوله . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد خرق له قوانين الأرض . . فهو قادر على أن يخرق له قوانين السماء . . فإذا أخبرهم رسول الله بعد ذلك بشيء حدث . . فلهم أن يصدقوا المعجزة . . ولا يشكوا فيها . .

إذن . . الاسراء كان مقدمة أرضية للتثبيت . . وللدلالة على صدق ما حدث طبقا لمقاييس العقل البشرى . . ولكن بعض الناس يأتى الآن ويقول . . إن الإنسان يستطيع أن يسافر الآن من مكة إلى بيت المقدس فى أقل من نصف ساعة مثلا . . وأنا أقول لهم إن هذا لا يمس المعجزة . . فمعجزة الله تبقى معجزة خالدة مهما تقدم العلم . . فعيسى عليه السلام مثلا كان يبرىء الأكمه والأبرص . . ولكنه كان يبرئه بلمسة من يده . . والطب تقدم الآن . . وأصبح الطبيب باستخدام الدواء ربما يستطيع أن يبرىء الأكمه والأبرص ولكن المعجزة بقيت معجزة وهى أنه لا يمكن أن يقوم أحد من البشر بابراء الأكمه والأبرص بمجرد لمسه . . كما كان يفعل عيسى . . كذلك المعجزة بالنسبة لمحمد عليه السلام قد يستطيع إنسان أن يتخذ وسيلة ما ليقطع المسافة بين مكة وبيت المقدس فى زمن قياسى . . ولكنه لن يستطيع أبدا أن يقطعها بجسده مجردا . . فتلك معجزة من الله لن يصل إليها بشر . . لا يستطيع إنسان أن يطير هكذا وحده فى الهواء . . ويقطع أى مسافة فى لحظات . . كما حدث لمحمد عليه السلام . .

إذن المعجزة هنا خالدة . . باقية فى طريقة حدوثها . . ولا يتأتى لأحد من البشر أن يصل إليها . .

يبقى بعد ذلك سؤال هام . . لقد كلم الله موسى عليه السلام . . وهو على الأرض . . فلماذا أسرى بمحمد عليه السلام إلى السماء ليفرض على عباده الصلاة . . ولماذا لم يكلم رسوله وهو على الأرض . . كما حدث لموسى ؟

معجزة الاسراء والمعراج

إن المعجزة الأولى وهى الاسراء .. تمت كآية أرضية .. وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وروى ما رآه بين مكة وبيت المقدس .. رواه كآية أرضية ليقرب إلى أذهان البشر الآية السماوية التى حدثت .. فإن كان قد صدق فيما رواه عن القوافل .. والمشاهد التى مر بها وهو يسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .. فإن ذلك يدل على صدق روايته عن المعجزة الكبرى .. ويؤكد لمن يروى له أنها حدثت ..

وهكذا كان الله رحيما دائما بالعقل البشرى .. فالله سبحانه وتعالى حينما يذكر غيبا هو فوق قدرة العقل البشرى .. وفوق طاقة البشر .. إنما يأتى بشيء قريب إلى فهمهم .. ليستطيعوا استيعاب هذا الشيء القريب ، أن يثبت إيمانهم .. ولا يسهل خديعتهم من غير المؤمنين الذين يحاولون التشكيك فى هذا الدين .. فنجد الله سبحانه وتعالى مثلا .. وقد كان فى علمه أن الناس سيعبدون العلم .. مبهورين بما يحقق .. ناسين قدرة الله سبحانه وتعالى .. يقول لهم : **« إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له »** .. ثم قال الله سبحانه وتعالى **« ضعف الطالب والمطلوب »** .. وجاءت الآية الأرضية فوصل العلم بالإنسان إلى القمر .. ولكنه لم يستطع أن يخلق جناح ذبابة .. وهناك آيات أخرى كثيرة عن الموت والحياة .. والبعث تقرب إلى الأذهان .. كل هذا وتؤكده .. ليكون دليلا دامغا ضد الذين يحاربون هذا الدين .. وفى القرآن معجزات كثيرة تحدثنا عن بعضها .. وسنتحدث عن بعضها فى المستقبل إن شاء الله .

نعود مرة أخرى إلى معجزة الاسراء والمعراج .. وقد توقفنا عند سؤال هام ..

لقد كلم الله موسى عليه السلام وهو على الأرض .. فلماذا أسرى بمحمد عليه الصلاة والسلام إلى السماء ؟ ولماذا لا يكلم رسوله وهو على الأرض ..

وقبل أن نبدأ فى الإجابة على هذا السؤال .. نعود للآية الكريمة التى تبدأ **« سبحانه الذى أسرى »** .. والذى أسرى هنا هو الله سبحانه وتعالى .. أما الذى أسرى به وعرج به إلى السماء .. وصعد به إلى السماء .. فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إذن فالفاعل هو الله .. ومادام الفعل من الله .. فيجب أن تنسب القدرة إلى الفاعل .. أى إلى الله سبحانه وتعالى .. والله لا تحده حدوده .. ولا قيود .. ولا تنطبق عليه مقاييس البشر .. وليس عنده زمان

ولا مكان . . ومن هنا فعندما نتحدث عن المعجزة . . يجب أن تكون فى أذهاننا قدرة الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى . .

ونعود مرة أخرى إلى السؤال . . لماذا كلم الله موسى . . ورفع محمدا إلى السماء . . ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادرا أن يكلم رسوله وهو على الأرض ؟ وهل الله سبحانه وتعالى يحده مكان . . بحيث يرفع رسوله إليه . . أم أنه لا يحده مكان ولا زمان ؟

حينما نتحدث عن هذا كله . . لا يجب أن نضع أمامنا مقاييس البشر . . فالزمان والمكان هما خلق من خلق الله سبحانه وتعالى . . خلقهما للإنسان فى حياته الأرضية . . ولكن الله لا يحده زمان ولا مكان . . ولا قدرة . . ومن هنا فإننى لا يجب أن أفهم المعجزة بمقاييسى أنا . . وقدراتى أنا . . كبشر . . ولكن يجب أن أفهمها بقدرة الله سبحانه وتعالى الذى لا يوجد عنده زمان ولا مكان . . فإذا نقصت المسافة . . وإذا قلت رفعه . . فمعنى الرفعة هنا شيء مختلف تماما عن معنى الارتفاع فى الجو مثلا . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين صعد برسوله إلى السماء . . ليس معنى هذا الصعود الذى نفهمه . . ولكن معناه الصعود الذى هو من قدرة الله . . والعمل يتناسب دائما مع القدرة . . ومن هنا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قد غير الله بقدرات الله من طبيعة الأشياء . . بحيث وصل إلى منزلة هى أكبر من منزلة أكبر الملائكة المقربين إلى الله سبحانه وتعالى . . وكما أن الأرض خلق الله لها قانونا . . فالسماء قد خلق لها سبحانه وتعالى قوانين . . ومن هذه القوانين أنه لا أحد بصورته البشرية يستطيع أن يصل إلى السماوات . . أو يخرج من عالم الأرض . . وعالم الأرض هنا ليس معناه القمر . . ولا النجوم المحيطة بالأرض . . ولا الشمس . . فهذه كلها مجموعة شمسية . . هى مجموعة الأرض . . وكلها تتفاعل معا . . وتتأثر معا . . بقوانين قد وضعها الله لها ليكمل بعضها بعضا فى المهمة التى حددها الله لها . . فالشمس مثلا إذا غابت اختلت الحياة فى الأرض . . والقمر إذا اختفى . . ربما حدث خلل فى قوانين المجموعة الأرضية . . إذن فهذه المجموعة الأرضية التى تضيئها الشمس التى نراها كل صباح إنما هى مجموعة واحدة . . خلقها الله سبحانه وتعالى وسخرها لخدمة الإنسان . . فالشمس تخدم الإنسان . . فتعطيه الدفء . . وتمكن له سبل الحياة . . وتنبت له الزرع . . إلى آخر ما يحدث . . ولو غابت هذه الشمس لتحولت الأرض إلى كتلة من الجليد

لا يعيش عليها البشر . . والريح . . والسحاب . . ونظام الكون . . كل ذلك مسخر للإنسان . . إذن فى داخل هذه المجموعة الشمسية حركة الإنسان . . وفى خارجها مئات من المجموعات الشمسية والكواكب . . مثل المجموعة الشمسية الموجودة فيها الأرض . . كلها من خلق الله . . وكلها لها قوانين تتبعها . . ولها مهام يعلمها الله سبحانه وتعالى . .

ولكن الله . . وهنا يجب ألا ننسى أن القدرة منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى . . قد خرق كل هذه القوانين لمحمد عليه السلام . . وجعله بإذن الله وبأمره يخرج من هذه المجموعة إلى الكون الأعلى ليرى من آيات الله ما لم يره بشر . . وليصل إلى سدرة المنتهى . . وليسمع صرير الأقلام . . وليس معنى هذا أن كل ذلك محدود بمسافة ومكان . . ولكن معنى الرؤية هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . أنه انتقل بقدرة الله من هذه المجموعة الأرضية . . إلى ما هو أرقى وأعلى منها . . وهذا الانتقال يقتضى تغيير طبيعة البشر من حال إلى حال . .

ولكى أقرب هذا إلى الأذهان . . أحب أن أقول ان الله سبحانه وتعالى مع كل آية سماوية يعطينا ما يقربها للأذهان . . فى حياتنا الأرضية . . فالإنسان مثلا طبيعته وهو نائم تتغير عن طبيعته وهو مستيقظ . . فهو حين يكون مستيقظا يعيش الحياة الأرضية العادية . . فإذا نام فقد يرى أشياء لا تخضع لقوانين الكون . . كأن يرى مثلا أماكن لم يرها فى حياته . . ولم يسمع بها . . وقد يلتقى مع أناس انتقلوا إلى رحمة الله منذ سنوات طويلة . . ويكلمهم ويكلمونه . . وقد تحدث له أشياء لا تتفق مع طبيعة العقل البشرى . . كأن يقفز من فوق جبل عال . . وينزل سالما على الأرض . . أو ينتقل من أقصى الأرض إلى أقصاها فى لحظات . . أو يرى عالما لا يوجد فى حياتنا الأرضية . . أو يذهب إلى مكان بعيد مئات الألوف من الأميال . . كل ذلك يحدث فى لحظات . . والإنسان نائم . . فإذا استيقظ ذهب عنه كل هذا . . وبدأ حياته الأرضية العادية . .

ما معنى هذا الكلام كله . . معناه أن طبيعة الإنسان . . والقوانين التى تحكم الإنسان وهو نائم . . تختلف اختلافا كليا عن تلك القوانين التى تحكمه وهو مستيقظ . . فهو يرى وعيناه مغلقتان . . ويتكلم ولسانه لا يتحرك . . ويسمع بينما لا أصوات حوله على الاطلاق . . كل ذلك يحدث خلال النوم . . لماذا ؟

لأن طبيعة البشر هنا اختلفت . . ومع اختلاف الطبيعة اختلفت القوانين . . فأصبحت تلك القوانين التى تحكم الإنسان وهو مستيقظ بالمكان والزمان . . والرؤية بالعينين والكلام باللسان . . أصبحت كل هذه القوانين ملغاة . . وانتقل الإنسان إلى طبيعة أخرى . . تحكمها قوانين أخرى . . ألغت إلى وقت محدود . . كل القوانين الأرضية التى اعتدنا الحياة بها . . فإذا كان هذا يحدث للإنسان عندما ينام . . وهو جسد لا ينتقل من مكانه . . فكيف بقدرة الله سبحانه وتعالى التى لا تحدها قيود ولا حدود . . وألا تستطيع هذه القدرة أن تخضع الجسد البشرى وهو مستيقظ لنفس القوانين التى يخضع لها وهو نائم ؟ بل هى تمكن له من معجزات أكثر بكثير من ذلك . . فإذا اقتربت الصورة من العقل البشرى إلى هذا الحد . . استطعنا أن نفهم أن المعجزات التى تمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . من خرق للقوانين البشرية . . والصعود إلى الملكوت الأعلى بالجسد . . هى معجزات أراد الله أن يقربها لنا بأن جعل البشر العادى يخرج من قوانين الأرض أثناء النوم . . فكيف بقدرة الله حين يريد أن يخرج رسوله من قوانين الأرض . .

إذن . . فالمعجزة تمت . . وتمت بقدرة الله . . ورأى رسول الله من آيات ربه الكبرى فى السماء . . أى أن موسى عليه السلام رأى آيات ربه الأرضية . . أما محمد عليه الصلاة والسلام . . فقد رأى آيات ربه الكبرى فى الملكوت الأعلى . . وهنا الاختلاف . . بين المعجزتين . .

أما حديث الله سبحانه وتعالى . . فقد تم فى مكان المعجزة . . أو مكان الآيات . . التى أراد الله أن يكشف عنها لرسله . . فكشف الله لموسى آياته الكبرى فى الأرض . . وكلمه وهو على الأرض . . وكشف الله لمحمد عليه السلام آياته الكبرى فى الملكوت الأعلى . . وكلمه عند سدرة المنتهى . . والله موجود فى كلا المكانين . . وفى كل مكان وزمان . . ومن هنا فإن الحديث لم يكن مرتبطا بتحديد مكان الله سبحانه وتعالى . . فهو موجود فى الأرض . . وموجود فى السماء . . ولكنه كان مرتبطا بكشف الله سبحانه وتعالى لآياته الكبرى . . فعندما كشف الله آياته الكبرى لموسى فى الأرض . . كان الحديث وموسى على الأرض . . ومحمد عليه السلام رأى آيات ربه الكبرى فى الملكوت الأعلى . . فكان الحديث حيث المعجزة . . وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى موجود فى كل مكان . . وليس كما يقول بعض المشككين بأن الله قد رفع إليه محمدا عليه

السلام ليكلمه فى الملكوت الأعلى . . وأن هذا تحديد لمكان يوجد فيه الله سبحانه وتعالى . . فالله بالآيتين كلام موسى على الأرض . . وكلام محمد فى الملكوت الأعلى . . إنما أعطانا البرهان والدليل على أنه موجود فى كل مكان . . وأنه يستطيع أن يخاطب من يشاء . . وكيف يشاء سواء تم ذلك على الأرض . . أو فى الملكوت الأعلى . . أو فى أى مكان فى ملك الله . . فالآية هنا دليل على أن الله سبحانه وتعالى لا يحده مكان ولا زمان . .

إذن الاسراء والمعراج تما . . بالروح والجسد معا . . ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى أنبياءه معجزات . . وهذه المعجزات هى خرق لقوانين الأرض التى وضعها الله سبحانه وتعالى . . ومعجزة إبراهيم . . ومعجزات موسى وعيسى كلها جاءت لتبطل مفعول قوانين أرضية وضعها الله سبحانه وتعالى للحياة فى الأرض . . فسلب الله النار خاصية الاحراق فى معجزة إبراهيم . . وأبطل قوانين الماء ليعبر موسى البحر . . وأعطى عيسى عليه السلام القوانين التى يشفى بها المرضى . . ويحيى بها الموتى بإذن الله . . وفى معجزة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . . خرق الله له قوانين الأرض . . وقوانين السماء . . فجعله ينتقل من الكعبة المشرفة إلى بيت المقدس فى لحظات . . وفى هذا خرق لقوانين الأرض . . كمعجزة أرضية أن ينتقل الإنسان بجسده وبدون استخدام أى وسيلة أرضية متاحة من مكان إلى آخر فى وقت لا يستغرق أكثر من دقائق . . ولكن الله سبحانه وتعالى زاد على ذلك بأن خرق له قوانين السماء . . فقانون السماء الذى وضعه الله سبحانه وتعالى هو ألا يصعد إنسان بجسده إلى السماء . . ولكن هذا القانون أبطل الله مفعوله لرسوله . . وجعله يصعد بالجسد حتى سدرة المنتهى . . ثم أراه الآيات الكبرى فى السماء . .

على أن لنا حديثا بعد ذلك حول الآية الكريمة « **ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى** » . . أى نزل من مكانه إلى مكان أقرب . . وهنا تدخل المسافات . . ولكن المعنى مختلف تماما . . فنحن نقيس البعد والقرب بالمسافة . . ولكن الحقيقة هى غير ذلك . . فنحن نأخذ الزمان والمكان أساسا لنا . . والزمان والمكان مخلوقان لله سبحانه وتعالى . . ومادام كل منهما مخلوقا لله . . فلا زمان ولا مكان فى حكم الله . . فلا يجب هنا أن نطبق قوانين البشر . .

على أننا فى هذه الحالة . . وكما قلت عدة مرات . . فإن الله سبحانه وتعالى رحمة بعقول البشر . . يعطيهم فى الحياة ما يقرب إليهم فهم ما هو فوق طاقة العقل وقدرته . . فإذا أردنا أن نحلل هذه العبارة بالمقاييس البشرية . . عندما أقول ان فلانا قريب من قلب فلان . . أو قريب من فلان . . هل أنا استخدم فى هذه الحالة المسافة . . أبدا . . ذلك أنه قد يكون جالسا إلى جوارى تماما . . ولكن بين قلبيهما مسافة كبيرة خلقتها الأحداث من بغض وتنافر وتناحر . . ومن هنا فإن إنسانا يجلس إلى جوار إنسان قد يكون أبعد الناس عنه أو عن فهمه . . أو قد يكون أبغض الناس وأبعدهم عن قلبه . . بل إنه أحيانا يعيش اثنان فى بيت واحد . . وتحت سقف واحد . . وكلاهما فى عالم مختلف تماما عن الآخر . . وكلاهما بعيد عن الآخر فى كل شىء . . فى حبه وبغضه وعاداته . . وتقاليده . . وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع . . ومن هنا فإن قرب الإنسان فى المسافة لا يعنى قربه من الإنسان الذى يجلس إلى جواره . . وإنما القرب يمكن أن يكون مع إنسان بعيد من ناحية المسافة . . فقد يكون أكثر الناس رؤية لك . . وقربا من مكانك . . هو أبعدهم عنك . . وقد يكون أقل الناس مقابلة لك . . وأبعدهم عن مكانك هو أقرب الناس . . إلى قلبك . . إذن فالقرب والبعد لا يمكن أن يقاسا بالمسافة . . ولا يمكن أن تنطبق عليهما مقاييس المكان . . ولكن تطبق عليهما مقاييس أخرى قد يكون أقلها شأنا هو المسافة . . ومن هنا فإننا لا يجب أن نأخذ الآية الكريمة « فكان قاب قوسين أو أدنى » . . بأن معناها دنو فى المسافة . . ولكن معناها قرب من القلب . . وهذا يأتى بالكشف . .

وإذا أردنا أن نوضح هذه العبارة . . فإننا نقول مثلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . سبح الحصى فى يده . . وأنا شخصيا أحب أن أعدل هذه العبارة . . بحيث أقول لأجعلها أقرب إلى الدقة . . إن رسول الله سمع تسبيح الحصى فى يده . . فالحصى يسبح فى يد المؤمن . . وفى يد الكافر . . وكل شىء فى الكون يسبح لله . . ولكننا لا نفقه ولا نسمع تسبيحهم . . وهذه الأشياء لا تسبح بإرادة الإنسان . . ولا دخل له فيها . . ولكنها تسبح بإرادة الله سبحانه وتعالى . . فرسول الله حين أمسك بالحصى . . سمع تسبيحها . . لأن الله سبحانه وتعالى كشف له عن ذلك . . ولكن أى إنسان يمسك بالحصى لا يسمع تسبيحها . . لأن الله لم يكشف له عن هذا التسبيح . . ومن هنا فإن الكشف يكون دنوا من الله سبحانه وتعالى . . وقربا منه . . بحيث يرى من شاء ما يشاء

من أسرار كونه . . والله سبحانه وتعالى يكشف ما يشاء لمن يريد . . فيقول الله سبحانه وتعالى عن داود عليه السلام :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾

(الآيتان ١٨ ، ١٩ سورة ص)

هل معنى ذلك أن الجبال توقفت عن التسبيح . . إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

ومعنى ذلك أن كل ما فى الأرض يسبح لله . . ولكن الذى أعطى لغة تسبيح الجبال . . واستطاع أن يفهمها . . وسمعها . . هو داود عليه السلام . .

والسؤال الذى يحاول بعض الناس أن يوجهوه . . هو بأى لغة يتم هذا ؟ وأنا أتعجب كثيرا من هذا السؤال . . فاللغة ليست محدودة بالألفاظ . . الاشارات اللاسلكية التى تنتقل عبر العالم . . هى لغة لا يستطيع أن يفهمها إلا من يقوم بالعمل فى هذا المجال . . ويدرس هذه اللغات . . فإذا جئنا بإنسان لم يدرس هذه اللغة . . وجعلناه يستقبلها فلن يفهم شيئا . . والشفرة السرية المستخدمة بين الدول . . هى لغة أيضا لا يستطيع أن يفهمها إلا من يعطى مفاتيحها . . والاشارات البحرية مثلا لغة ثالثة يفهمها رجال البحار . .

إذن هناك بجانب الألفاظ المنطوقة لغات متعددة يفهمها أهل الأرض . . ويصطلحون عليها . . ولا يستطيع أن يفهم هذه اللغات إلا من أعطى مفاتيحها . . فكذلك تسبيح الجبال . . وتسبيح كل شيء . . لا يفهمه إنسان ولا يسمعه إلا من أعطى مفاتيحه . . تماما كما أن هناك تخاطبا بعشرات اللغات يتم عبر العالم . . سواء بالشفرة . . أو باللاسلكى . . أو بغيره . . ونحن لا نحس بها . . ولا ندرى . . حتى بمجرد وجودها . . ولا بما يتم فيها . .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين كشف للنبى صلى الله عليه وسلم أسرار السماء . . وأراه الله آياته الكبرى . . كان ذلك فضلا من الله لنبيه . . ولا يمكن أن نضع نحن البشر بمقاييس الزمان والمكان . . ماهية هذا الكشف . . ذلك لأن

الله سبحانه وتعالى منزه عن الزمان والمكان . . لا أستطيع أن أقيس المسافة . . وأقول كم صعد رسول الله فى السماء . . لأن الله ليس عنده مسافة . . ولا أستطيع أن أقول . . كم من الزمن استغرق ذلك . . لأن الله سبحانه وتعالى ليس عنده زمن . . ولكننى أستطيع أن أقول ان ذلك حدث . . لأن الله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض وكل شىء . . يستطيع أن يعطل القوانين لتتم معجزة من المعجزات لأنبيائه . . والمعجزة كما قلت سابقا لا تتكرر أبدا . .

وكما نقول فى صعود محمد عليه السلام إلى السماء . . نقول فى القرب منه . . فالقرب ليس بالمسافة كما أوضحت . . ولكن معناه التصاق بالقلب والروح . . لأن الوحى حين كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه كلام الله . . كان قريبا إلى قلبه . . وإلى روحه قربا لم يحدث لبشر قبله . . ومن هنا كان النبى صلى الله عليه وسلم . . أثناء الوحى يغيب عن الوعى . . وبعد الوحى يبدو مرهقا من امتزاج الوحى بالطبيعة البشرية . . وهو امتزاج لا يحدث إلا بأمر الله . . ومن هنا أيضا عندما نزل القرآن على رسول الله وهو يصف نزول الوحى . . ان جبريل جاءه وقال له اقرأ قال ما أنا بقارىء . . قال أخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد . . ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد . . ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء . . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى وقال اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء قال :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾

والغطة أو « الضمة » هنا هى تعبير من رسول الله عن القرب والامتزاج الذى يتم من خلال الوحى بالقرآن . .

ولقد رأى رسول الله فى السماوات السبع ما رآه . . وجاء وقص ذلك على الناس . . فمنهم من صدق . . مثل أبى بكر تصديقا إيمانيا . . لأن أبا بكر عندما روى له ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسراء . . سأل سؤالا واحدا هو هل قال محمد هذا ؟ قالوا نعم . . قال : إذن فهو صادق . .

وكان التصديق هنا أن رسول الله لا يكذب أبدا .. ولا ينطق عن الهوى .. ولذلك لقب أبو بكر بالصديق .. ولكن بعض الناس أنكروا ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وهنا أخبرهم رسول الله من أنباء القوافل التى بين بيت المقدس ومكة .. فقالوا له صف لنا بيت المقدس .. فوصفه وصفا دقيقا .. وكانت هذه الآيات الأرضية مقصودا بها .. أنه مادام رسول الله قد صدق فى ذلك .. فهو صادق فيما رواه عن المعراج .. وعن صعوده إلى السموات .. وعن اختراقه الحجب ..

تلك هى معجزة الاسراء والمعراج .. وهى معجزة خرق الله فيها لرسوله قوانين الأرض .. وقوانين السماء ليريه من آياته الكبرى .. ويثبته .. ويفرض عليه أقدس العبادات .. وأقربها إلى الله سبحانه وتعالى وهى الصلاة .. والمقصود بالمعجزة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فهى لم تحدث أمام جمهرة من الناس .. أو على مشهد من الملأ .. بل حدثت بين الله ورسوله .. وكشف له فيها أسرار السماوات .. وأسرار الكون ..

ماذا تعلمنا هذه المعجزة .. تعلمنا أولا قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يفعل ما يشاء .. لعباده الذين يختارهم .. وتعلمنا أن خاتم الرسالات قد فتح الله له .. ليس فقط ملك الله فى الأرض .. ولكن ملك الله فى السماوات .. تعلمنا أن الله سبحانه وتعالى موجود فى كل مكان .. يكلم نبيا وهو على الأرض .. ويكلم نبيه وهو عند سدرة المنتهى .. ولو كان الله سبحانه وتعالى موجودا فى السماوات وحدها .. ما كلم نبيا له على الأرض .. ولو كان موجودا فى الأرض وحدها .. ما كلم نبيا عند سدرة المنتهى .. وأخيرا .. إن معجزات الرسل قد تمت على مشهد من المؤمنين .. لتثبتهم .. أما رسول الله فكونه خاتم المرسلين .. فقد اختص وحده بالصعود إلى السماء .. أما المعجزة الخالدة الباقية فهى القرآن الذى يعطى عطاء لكل جيل .. يختلف عن عطاء الجيل الذى سبقه .

حديث قدسـى

●● إذا كان ليلة القدر ينزل جبرائيل فى كوكبة من الملائكة يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله ، فإذا كان يوم عيدهم باهى بهم ملائكته فقال : يا ملائكتى ما جزاء أجير وفى بعمله ؟ قالوا : ربنا جزاؤه أن يوفى أجره . قال : يا ملائكتى : عبيدى وإمائى قضوا فريضتى عليهم ثم خرجوا يعجون - يصيحون - إلى بالدعاء ، وعزتى وجلالى وكرمى وعلوى وارتفاع مكانى لاجيبنهم ، فيقول : ارجعوا فقد غفرت لكم وبدلت سيئاتكم حسنات فيرجعون مغفورا لهم .

●● أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : يا موسى ان من عبادى من لو سألنى الجنة بحذافيرها لأعطيته ، ولو سألنى علاق سوط من الدنيا لم أعطه ، ليس ذلك من هوان له على ولكن أريد أن أدخر له فى الآخرة من كرامتى ، وأحميه من الدنيا كما يحمى الراعى غنمه من مراعى السوء . يا موسى ما ألجأت الفقراء إلى الأغنياء بأن خزائنى ضاقت ، وبأن رحمتى لم تسعهم ، ولكنى فرضت للفقراء فى أموال الأغنياء ما يسعهم ، أردت بأن أبلو الأغنياء كيف مسارعتهم فيما فرضت للفقراء فى أموالهم . يا موسى ان فعلوا ذلك أتممت عليهم نعمتى ، وضاعفت لهم فى الدنيا ، للواحدة عشر أمثالها . يا موسى كن للفقير كنزا ، وللضعيف حصنا ، وللمستجير غيثا ، أكن لك فى الشدة صاحبا ، وفى الوحدة أنيسا ، وأكلؤك فى ليلك ونهارك .

●● يعذب اللسان بعذاب لا يعذب به شىء من الجوارح فيقول : يارب . عذبتنى بعذاب لم تعذّب به شيئا من الجوارح ، فيقول : خرجت كلمة بلغت مشارق الأرض ومغاربها ، فسفك بها الدم الحرام ، وأخذ بها المال الحرام ، وانتهك بها الفرج الحرام ، فوعزتى لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئا من الجوارح .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٢٢ / ٩٣
I. S. B. N
977 - 08 - 0176 - 3

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم